روايات  عالمية

المسرح العائم

SHOW BOAT

المسرح العائم

قصة اجتماعية رائعة

للكاتبة الامريكية الكبيرة

ادنا فربر

الفصل الاول

كانت « بيزار » أو « كيم رافنل » تحمد حظها اذ اقتصر في سوئه على هـذا الاسم فلم يرزؤها باسـم أكثر اضجارا واثقل على اللسان ، كاسم «مسيسبى » وكثيرا ما كانت تقول عندما كبرت :

ـ يا لله .. اى اسم .. مسيسبى رافنل .. من كان يشعر في نفسه برغبة في الذهاب لمشاهدة ممثلة تحمل اسم « ميسى » ؟ .. ان «كيم» اسم سخيف ايضا ولكنه اخف وطأة ..

والواقع ان اسم كيم آل اليها من الاحـرف الاولى من اسماء الولايات الثلاث «كنتوكى» و «ألينوس»و«ميسورى» وهى الولايات التى ولدت فى مياهها .

الولايات التى انقذتها اسماؤها من اسم « مسيسبى » الذى كانت أمها مانوليا رافنل تعتزم اطلاقه عليها ، تيمنا بالنهر العظيم . الذى قضت معظم طفولتها على سطحه ، والـذى طالما سحرتها أمواجه . وهمست في اذنيها باعذب الاحاديث الحالمة .. والذى ولدت عليه «كيم» نفسها . عندما ثارت هائجته وتدفق يغرق البلدان القائمة على ضفته في صبيحة احد ايام ابريل سنة ١٨٨٩ .

كان ذلك عند نقطة من السـاحل قريبة من القـاهرة الامريكية « كايرو » حيث تختلط مياه «المسيسبى»الصفراء بمياه « الاوهيو » الخضراء الداكنة .. وكانت أمها مانوليا مستلقية على فراشها ترقب شواطىء الولايات الثـلاث ، وقد اسدل عليها الضباب استاره .. شواطىء الينيوس وميسورى وكنتوكى .. ولكنها كانت ترقبها بعينين سارحتين وكأنها تبحث خلفها عن آفاق خفية لا تتراءى لغير عينها .. وقد غارت وجنتاها ، وشحب وجهها . وبدا عليها الاعياء

والتحول .. بينما كان المطر فى الخارج يضيف الى العاصفة مظهرا جديدا من مظاهر سخط الطبيعة وغضبها . والامواج تعبث بسفينة الاستعراض التى كانت تحمل الفرقة التمثيلية الموسيقية المتجولة ، التى كانت مانوليا تعيش بين افرادها . اذ كان أبوها صاحب السفينة ومدير الفرقة وممولها ..

وتم الوضع اخيرا بسلام .. واقبلت أم مانوليا العجوز .. مسز بارتينا ان هوكس زوج الكابتن اندى هوكس تحمل وعاء من الحساء وملعقة ، فقالت فى لهجتها الآمرة كعادتها :

ــ والان . ايتها الام الصغيرة . عليك ان تحتسى هــذا اردت او لم تريدى .. فهو لا شك منشط قواك ..

وانحنت على النفساء . وملات الملعقة . وقربتها من فمها .. ولكن يد مانوليا تسللت من تحت الغطاء خفية فاختطفت الملعقة بما فيها من شراب ساخن . وارسلتها الى نهاية الغرفة التى كانت ترقد فيها على سطح السفينة ..

واهتز جسد الام لفرط الغضب . وهددت وتوعدت وسبت وشتمت .. ولكن مانوليا أسبلت جفنيها فى صمت وسكون . وهى تضم الى صدرها الحزمة التى كانت ترقد الى جوارها . من اللحم الطرى .. الطازج ! .

ونفذ الى القمرة فى تلك الاثناء فريق من اهل السفينة. فما رات احدى الزائرات الطفلة حتى صاحت :

ــ يا للصغيرة الجميلة ! لم يكذب الطبيب او يبالغ .

ورمقتها الام الغضبى بنظرة محنقة .. وانكمش الطبيب الشاب الذى استدعوه من الشاطىء فى ساعة مبكرة .. بل فى ساعة متاخرة من المساء السابق .. وقد خشى ان يعود عليه وصفه للطفلة باسوأ العواقب .. ولكن « ديكتاتورة » السفينة ما لبثت ان تحولت فعادت تعد الحســاء للنفساء من جديد . وراحت تدير الملعقة فى جنبات الوعاء فى عنف وشدة أشفق معهما الطبيب على أعصاب الام الصغيرة فما

لبث أن أستجمع شجاعته وقال

ــ معذرة أيتها المراة الطيبة .. معذرة يا مسز هوكس لا تديرى الملعقة ..

وتسللت اصابع النفساء من تحت الغطاء . فضغطت على اصابعه . فاذابت جليد الخوف عن قلبه . وصهرت عواطفه .. وابتسم وجهها ابتسامة من فهم وأدرك حقيقة مشاعرها .. ابتسامة الرفيق الصديق .. وعجب فى نفسه كيف تبعث الشجاعة فى نفسه . وهى الضعيفة الخائرة . وهو الرجل القوى .. ولكنها طبيعة مانوليا رافنل ! .. كانت لها قوة خفية تستطيع بها لو شاءت . ان تسيطر ــ وهى تبتسم ــ على امها وعلى ابيها الكابتن اندى هوكس وعلى زوجها جايلورد رافنل . وعلى جميع افراد الفرقة المقيمين على السفينة بل وعلى السفينة نفسها . التى كانت تتارجح فى تلك الاثناء بين طيات الامواج القاسية المهتاجة الهائجة الصاخبة ..

وكان ثمة سببان زجا بالسفينة الى موقفها الحالى .. المسيسبى الجائح .. ومانوليا رافنل التى واتاها المخاض فارسل القلق الى نفوس كل من على السفينة . واسرع الكابتن اندى هوكس بنفسه الى الشاطىء يبحث عن طبيب له .. وفيما كان أنين مانوليا على اشده . والطبيب حائر يكدح الذهن ليذكر شيئا مما تلقاه أثناء دراسته عن مثل هذه الحالة . ارعى المسيسبى وأزبد . وأرسل فيضانه قويا مكتسحا .. فاخر الفرقة عن المضى فى رحلتها لعرض رواياتها واستعراضاتها على المزارعين فى موسم الحصاد . وهى رحلة كانت تدر على الكابتن ذهبا براقا . رحلة تاهب لها الكابتن بكل ما اوتى من مال وجهد وحيلة وفكر . ثم جاء النهر المتنمر فهاج وثار وعطل عليه اغراضه .. وحرمه من الذهب الذى كان منتظرا .. ومن النجاح الذى كانت

كفيلة بضمانه تلك الاعلانات الفخمة التى اقامها على جانبى النهر فى المدن الشاطئية .. فقد كانت الدعاوه التى اذاعتها هذه الاعلانات ككل دعاوة من نوعها من شانها ان تثير فى نفس المزارعين عوامل الشوق والتلهف والترقب . لا سيما وهم تواقون الى ان يبيحوا لانفسهم شيئا من المتعة بعد عمل السنة الشاق المجهد . والى أن يجعلوا من أرباح الموسم لمسرتهم ومباهجهم نصيبا .

ولكن المخاض الذى واتى مانوليا . والذى اوقف سير الرحلة .. ثم هياج ذلك النهر المتحفز ..

بيد ان الكابتن اندى هوكس لم يحس بالاسف . فقد كان شديد التعلق بابنته .. كانت تربطه بها رابطة قوية من الحب والتفاهم المتبادلين كتلك التى تربطها بزوجها فقد كان قلبا واحدا ..

.. وكان الطبيب الشاب الحائر . المرتبك . يدرك ذلك . اذ كشفه لاول وهلة عندما وطأت قدماه الباخرة . ولذا فقد ظل يرجو ان ياتى الاب او الزوج . فينقذ حرج الموقف . حين اعدت مسز هوكس الحساء من جديد . وعادت تحاول اجبار النفساء على ارتشاف ملاعق منه .

وكان جايلورد رافنل مع الكابتن هوكس فى تلك الاثناء يكافحان فيضان المسيسبى مع رجال السفينة . وافراد الفرقة . ولكن الاقدار استجابت لرجاء الطبيب فارسلت الشخصين اللذين يدخلان الغبطة على قلب مانوليا .. اقبل جايلورد رافنل الانيق فى المقدمة . يحاول ما امكنه أن يسوى من مظهر ملابسه غير المكواة ليبدو فى صورة تسر لها زوجه النفساء .. وفى اثره اندى هوكس وقد بدا فى نفس الصورة التى كانت تتراءى فيها منذ أربع وعشرين ساعة . وكانه لم يجهد نفسه مع رجاله فى هجمات ضد امواج الفيضان الجائحة . وكانه لم يستسلم للقلق والوهم

والهواجس التى كانت تراوده فى الحاح على ابنته .. وعلى سفينته ! ..

وصاحت مسز هوكس ــ اذ رات زوجها ــ فى صوت شاك : لقد ابت ان تتناول شيئا من حسائها .. انها عنيدة تابى كل شيء . حتى ما يعود عليها بالنفع ..

فتناول جايلورد الوعاء والملعقة منها . ثم اشار بطرف عينيه للكابتن الذى الى كوب على نضد فى طرف الغرفة . فاسرع هذا يغسله ثم حمله اليه . فملا نصــــفه ماء .. واقترب الرجلان من الفراش . وقد بدا ان لهما تاثيراً جليا على اراقده فيه .. ووسد جايلورد راسها على ذراعه وقد تناثر شعرها فى فوضى . بينما ملا الكابتن هوكس الملعقــة مما فى الكاس . ثم ناوله اياها . فامسكها فى رفق وقربها من شفتيها .. وراح يفرغ ما فيها . قطرة فقطرة وهــو يسكب فى اذنيها اعذب الكلم واحب الوان التدليل ..

وللمرة الثانية منذ وضعت حملها . انفرجت شفتاها . لتبزغ من بينهما ابتسامة . واهنة كليلة .. ولكنها خلابة ساحرة ..

الفصل الثانى

والواقع ان اية فتاة لم تنعم بما نعمت به مانوليا رافنل عندما كانت تدعى مانوليا هوكس . من طفولة مرحة ذات الوان متغيرة دائمة التبدل . وجو شاعرى وجو خيــالى تسبح فيه صور الاوهام ..

فما بلغت الثامنة من عمرها . حتى كانت قد انقذت من الغرق من كل بقعة على شــاطىء المسيسيبى . من خليج مكسيكو حتى مينيسوتا .. وكانت حياتها العادية تزخر بما يحرم على مثيلاتها من الصغيرات الاقدام عليه من اعمال . فكانت تســبح فى اسرع المــوحلة المفعمة بالطمى . وكانت

تسهر الى منتصف الليل . وتقرا القصص الغرامية المكشوفة التي تعثر عليها فى غرف النسوة اللائى يرافقن الفرقة التمثيلية . وتطوف طرقات المدن التى ترسو عليها السفينة وحيدة دون كبير يقودها او يرشدها او يرعاها و « تغمز » وتقلب سحنتها وتغير من قسمات وجهها كما يفعل الزنوج . كل ذلك رغم الرقابة القاسية التى فرضتها عليها امها . التى كانت رغم كل شيء تحرص على ان تتمسك به نساء « الحريم » فى تركيا من اراء وعقائد وتصرفات و .. تعلق بالدين .. ومع انها عاشت على ظهر السفينة الموسم بعد الاخر : وفرضت سلطانها ما امكنها على كل شخص وعلى كل شيء على ظهرها . الا انها كانت سرعان ما تختفى فى سوبعات المرح والعبث .. حتى اصبح مجرد ظهورها فى اى بقعة على سطح المركب . مبعثا للرهبة فى القلوب ..

فهى ما كادت تتزوج من الكابتن اندريه هاردى — او اندى كما يدعى — وتنتقل الى سطح سفينته الاولى التى كانت تقوم بنقل البضائع والمسافرين فى النهر . حتى سعت الى فرض سيطرتها على الطاهى الزنجى الذى كان يعد نفسه ديكتاتورا مستقلا فى مطهاه بالطابق السفلى . لاحق لاحد فى التدخل فى شئونه .. وكانت بينهما مصادمات مضحكة مبكية . انتهت به ذات يوم الى ان يقذفها بالوعاء النحاسى الذى يعد فيه « التقلية » فتطايرت اشلاء البصل وبقايا التوم . وقطرات المسلى على ثوبها فانطلقت الى سطح السفينة هاربة صارخة حتى ظن المسافرون .. وزوجها فى مقدمتهم ان الرجل قد قضم اذنا من اذنيها .. ولم يك ثمة شك فى وجوب ترك الطاهى الزنجى المسكين . فى اول ميناء رست عليها السفينة .. ومن تم . وطدت مسز هوكس دعائم سلطتها فى المطهى ..

وكانت فى حركة دائمة دائبة على ظهر السفينة .. تنتقل من مكان الى اخر . وتعكر على الخدم صفو فترات الراحة التى كانوا يختلسونها غرارا ليتجمعوا فى مناى عن الاعين يتهامسون عما راوا او سمعوا من أسرار الراكبين .. بل ولم يقتصر الامر على الخدم ورجال السفينة .. فكانت ترقب المسافرات فى ارتياب وشك . وترمق المسافرين فى ازدراء واحتقار .. فقد كان يمض نفسها المتدينة ان تراهم مقبلين على اللعب والميسر ليل نهار . يعدونه خلال الرحلة كالطعام والشراب وغيرهما من لوازم الحياة ..

ولقد يرى احد السادة المسافرين ان واجب اللياقة يقتضيه اذا صادفها ان يتلطف اليها قائلا :

ــ ... لعلك مسرورة مستمتعة بهذه الرحلة المشوقة على ظهر سفينة زوجك الفخمة يا سيدتى ..

فتعبس اذ ترى فى لهجته من الرقة ما يصعد فى ذهنها الى مصاف الغزل والتقرب وتجيبه وفى لهجتها فتور . وعينها ترمقه بنظرة قاسية :

ــ ان السفينة فخمة حقا . ولكن هذا العبث الذى يقع على ظهرها طيلة الليل . وذلك الفراغ اللاهى الذى يستسلم اليه راكبوها فى النهار . بشيناها فى عين المرء . ويبعثان فى روح كل مسيحى صادق . نذيرا بان ثمة عقابا لن يلبث ان يحل بها قبل ان تصل الى نهاية رحلتها ..

ولقد عرف عنها المسافرون هذه الروح التقية الصارمة فكانوا يتندرون بها اذا ما امنوا غيابها عن مجالسهم .. اما فى وجودها . فما كان احد ليجسر ان يبدى ما قد يثير سخطها .. كان الكل يخشونها ! ..

ولعل تودد المسافرات الى زوجها الرشيق .. وحذقه فى توجيه الحديث اليهن فى رقة ومجاملة . زادا من اذكاء نار السخط فى اعماقها .. فلقد عاشت العمر قبل زواجها

لا تسمع كلمة غزل . ولا ترى من رجل توددا . حتى لقد كانت تمر بها لحظات لا تكاد تصدق فيها انها اصبحت زوجة .. واما .. كانت محرومة من نعومة الحب وحلاوته المستعذبة .. فاصبحت تراه خطيئة . وتنظر اليه بعين الشك والاتهام ! ...

واذا كانت مانوليا قد نعمت على ظهر السفينة فى حداثتها بشىء من الحرية . فان القسط الاكبر منها كان يعود الى تغافل امها عنها . لانهماكها فى مراقبة المسافرات وفى ملاحظة ما يطرأ على علاقتهن بزوجها من تطورات .. واذا كانت هذه المشاغل قد الهتها عن فتنة النهر . فان الصغيرة مانوليا لم تلبث ان وجدت نفسها ماخوذة بسحره وروعته منذ الرحلة الاولى التى استطاعت فيها ان تعى ما حولها حتى لقد كانت مسز هوكس تجتذبها عنوة عشرين مرة كل يوم . من حجرة القيادة . حيث تقع الدفة . او من بين دواليب الالات .. وهى تصرخ فى وجهها شاتمة . مؤنبة معنفة .. وكثيرا ما نصحتها فى لهجة من نمى ارادته .

ــ خير لك أن تنصتى الى أحاديث السادة والسيدات من المسافرين والمسافرات بدلا من تلك الاحاديث التافهة السخيفة التى تسمعينها من العمال والبحارة . الذين تهرعين اليهم كلما سنحت لك الفرصة .. او .. اقطعى الوقت بقراءة كتابك . اين ذلك الكتاب الذى ابتعته لك كى تتسلى به خلال الرحلة .. اذهبى فاحضريه ..

ولكنها كانت تعود كل مرة ــ اذا قدر ان تعود ــ وهى تحمل كتابا من نوع اخر .. قصة من قصص القراصنة او العصابات القديمة سفاكة الدماء . او غيرها من القصص التى كانت تستعيرها من البحارة .. والتى كانت امها تنتزعها من يدها غضبا اذا وقعت عليها عيناها ..

وكانت تكره « صالون » السفينة الا فى الامسيات .حين

تنعكس اضواء مصابيح البترول على مراياه فترسل وميضا اخاذا . وتبدو السيدات فى احرار لامعة . واللاىء البراقة . بينما تكسب ملابس السهرة الرجال روعة منظر واناقة . ولم يك فى وسعها اذ ذاك أن تفر الى حجرة القيادة الزجاجية على ظهر السفينة فى ظلمة الليل . فكانت تبحث عن الترفيه فى مشاهدة النوم والانصات الى احاديثهم او اغنياتهم . خشية ان ترسل الى فراشها غصبا اذا ما بدا عليها من الملل شيء ..

ولكن .. ما تكاد تنقضي الامسيات .. ويريحها النوم من ظلمة الليل ومثله .. وتقبل اخيراجيوش النهار باضوائها الساطعة . حتى تهرع الى سطح السفينة ، فتمسك بيد أبيها ويجرها خلفه فى حنو اينما ذهب وهو يشرف على بحارته ورجاله .. وكان يشجيها ضجيج الالات فتخاله أعذب من الانغام التى تسمعها فى الصالون ! .. وكم كانت تفتنها غرفة القيادة الزجاجية . التى تعلو عن غيرها فوق سطح السفينة . وقد تكسرت حواليها نصال الشمس فاحاطتها بهالة من البريق .. كانت ترى منها كل بقعة فى عرض النهر وعلى جانبيه .. وكانت ترقب خلال جدرانها البلورية الامواج القادمة عن بعد فى تدن وانطواء .. وكانت تسال ماسك الدفة او تسال اباها عن الاماكن التى ستمر بها السفينة فيما بعد وما قد يقابلها فى عرض النهر من انحناءات ، فيلذ لها ان تجد من يكشف لها هذه الاسرار التى تبدو لها غامضة مشوبة بالابهام .. فتنظر الى ماسك الدفة او الى أبيها كما لو كان كل منهما ساحرا ملهما ، او راجما بالغيب كشفت امام عينيه الحجب ! .

وكان مستر بير . ماسك الدفة . يسمع لها فى بعض الاحيان . اذا ما مخرت السفينة عباب منطقة عميقة الغور او تدير الدفة وهو واقف الى جوارها . او وأبوها واقف

خلفها يرقبها . فتحس نشوة ومتعةدونهما كل متعةونشوة .. بل ولقد خبرت دقات النواقيس المختلفة على سطح المركب وادركت ما تعنيه كل دقة من أصطلاح اتفق عليه الملاحون .. واكتر من ذلك انها كانت تتيه زهوا حين تجد نفسها بين جدران حجرة القيادة التى حرم على اى فرد على ظهر السفينة ان يدخلها فترى انها أوتيت ما لم يؤته غيرها ممن يكبرونها من امتيازات !..

هكذا كانت فى ربيع طفولتها .. تستمتع بحياة باسمة لامعة .. لا ينغصها عليها سوى رقابة امها وحرصها وشدتها .

وهكذا كان التعارف الاول.. بين مانوليا ونهرالمسيسيبى

الفصل الثالث

على ان تلك السفينة التى ولدت عليها مانوليا.وقضت على ظهرها طفولتها . ما لبثت ان توارت وراء حجب الاهمال لتحل محلها من عناية الكابتن اندى هوكس سفينة العرض المسماه « مسرح زهرة انقطن » ..

ذلك ان السفينة الاولى « كريدل بيل » كانت تقوم على خدمة المسافرين ونقل البضائع والعتاد على سطح المسيسبى ونهيراته وفروعه .. ولكن تقدم وسائل المواصلات فى البر مالبث ان عطل عمل كريدل ومنيلاتها فجزع الكابتن اندى فما كان ليجيد حرفة غير الملاحة . وما كان يستطيع كسب عيشه الا بين طيات الأمواج .. وما كان يعترف بالمنزل الذى اتخذته اسرته لتقيم فيه بضعة اشهر من كل عام فى « طيبه » الامريكية . ما كان ليعترف بهذا المنزل فقد كان منزله وبيته السفينة التى تمخر به عباب النهر .. وما كانت له من دنيا سوى دنيا المسيسبى .. النهر الذى كان يحبه ويخافه فى ان واحد ..

وراح يكدح ذهنه . فما لبث ان اهتدى الى امر كان

خافيا عليه .. لا . بل كان يخشى التفكير فيه من قبل كان زميله « اولى بيجرام » العجوز ينتوى بيع سفينتــه « زهرة القطن » التى كان يستخدمها كمسرح عائم متنقل يعرض المسرحيات والالعاب والموسيقى على سكان المــدن والقرى الواقعة على جانبى النهر .. وكانت هذه السفينة تدر عليه ارباحا طائلة تكفى لان تغرى ايا من ابناء المسيسيبى ولكن الذى كان يعمل لمعارضة زوجته كل حساب .. كان يعرف ان روح التدين والتقوى ستدفعها لان تسفه رايه وكان يدرك أن روح الحزم والصرامة التى نشات عليهــا عندما كانت تعمل كمدرســة فى احــدى مــدارس الريف الالزامية قبل زواجهما . كفيلة بان تحمها على ان ترى فى شرائه مسرحا عائما مايخدش الشرف والكرامة . ويخرج عن حدود الاحتشام .

وصح ما توقعه . فقد ثارت فى وجهه عندما اشار فى تردد وتهيبه الى ان بيجرام العجوز يعتزم بيع سفينتــه المسرحيه « زهرة القطن » . وانه يتمنى لو اشتراها ..

بيد ان ثورتها لم تثنه عن ان يعمل على تحقيق الفكرة التى قامت فى راسه .. كان ابن النهر . يدين للنهر بكل ما فيه . وبكل ما يملك . فلا يستطيع له فراقا بعد اذ كسدت حركة النقل والملاحة النهرية .. وكان يؤمن بان السفن المسرحية العائمة تدر ارباحــا اثرى من ورائهــا أشخاص يعرفهم تمام المعرفة . وان من العبث ان يترك الفرصة السانحة امامه . تمر دون ان ينتهزها ويفيد منها

وراح يعمل فى الخفاء ، ليل نهار ؛ ولا يجد من يفرج عنــه ضغط مايعتمل فى صدره ، سوى الصغيرة مانوليا التى كانت تصغى الى كل همساته باذن واعية واهتمام وكانما كانت تفهم كل مايقول .. كانت تحب النهر الذى ولدت على صدره . فكانت لذلك تطرب لكل حديث عنه ، وتتوق للعودة الى الحياة

فى تلك الدنيا العائمة على سطحه ؛ التى كانت تمثلها سفينة أبيها .. وتشعر بالملالة وتحس بكابة لهذه الحياة الجامدة التى تسير على وتيرة واحدة . على البر . لا تغير فيها ولا تبدل .. والتى تزيد من وطاتها . تلك الرقابة الثقيلة التى تفرضـــها عليها أمها ..

ولقد صادفت مانوليا فى تلك الاثناء حادثا اتسق فى ذاكرتها الصغيرة مع ماكانت تسمعه من أبيها عن السفينة الجـديدة والقوم الذين يعيشون عليها «الممثلين» فقد استطاعت يوما أن تهرب من رقابة أمها حتى وصلت الى الباب الخارجى لدارهم فى «طيبة» فاذا بها تلتقى برجل وامراتين يتسكعون أمام البيت وهم ياكلون شيئا من الفاكهة فى استخفاف . ويضحكون فى تبذل .. وكانت احدى المراتين صغيرة . جميلة . فى لباس لم تر مانوليا أبدع منه .. أما الاخرى فكانت تكبر زميلتهـــا سنا . وقد تبدت على وجهها ندب طويلة لم تدر مانوليا ماتاها وتراءت عيناها جامدتين غائرتين . ولباسها مشعثا غير معنى به .. كما كان حال لباس الرجل الذى لاح شابا لم تطعن به السن بعد .. بيد أن جوافاتنا حبيبا كان يحوط الثلاثة وهم يتسكعون فى مشيتهم .. وفجاة . لمحت كبرى المراتين مانوليا فابتسمت لها .. وتلفتت الصغيرة حولها حتى اذا امنت عينى أمها . لم تر باسا من أن ترد الابتسامة فصاحت المراة :

ــ الا انظر الى الطفلة .. ما أجمل ابتسامتها ..

ولكن ابتسامة مانوليا لم تلبث أن خبت اذ رات نظـــرة الاخرين تنحدر اليها فى غير اكتراث .. وقالت المراة الصغرى شيئا تصف به الكبرى بالحماقة .. ولكن هـــذه ركعت على ركبتيها أمام الطفلة وقالت :

ــ هالو يا صغيرلى ..

فحدقت فيها مانوليا مبهوتة حائرة .. فعادت المراة تقول :

ــ الا تقولين لى « هالو » ..

فصاحت الاخرى الجميلة : مرحبا لك ياجولى .. هيا بنا
ولكن جولى وجهت الحديث لمانوليا وكانها شخصا يفهمها لا تبتسمى كثيراً عندما تكبرين . ولكن .. استعملى ابتسامتك كلما كنت فى حاجة ماسة الى شىء ما . او احببت أن تاسرى قلب الناس .. ولكننى اظنك مدركة ذلك من تلقاء نفسك متى كبرت .. والان . هلا قلت . هالو ؟..

ـ كلا .. ان .. ماما لا تسمح لى

ـ يالعجب !.. ولم يا صغيرتى ؟..

ـ لانها لا ترضى عن حديثى الى ممثلين ..

فصاحت صغرى المراتين وهى تضرب بقدمها حجرا أمامها لعنة الله عليك من شقية !..

وانطلق الرجل مقهقها .. وفى تلك اللحظة . خرجت مسز هوكس من البيت وهى تصيح :

ـ ماجى هوكس .. تعالى فى الحال !..

وكان «ماجى» هو الاسم الذى تنادى به مانوليا فى سويعات الغضب .. وتضاعفت ضحكات الاشخاص الثلاثة ..

وعندما جاء الكابتن آندى فى المساء : كان يحمل قصة جديدة .. كان الاشخاص الثلاثة من ممثلى السفينة المسرحية «سيناسيون الفرنسية .. وبينما كانت صغرى السيدتين تقوم بدورها ذات مساء : اذا بالنار تشب فجاة فى السفينة فتاتى على معظمها .. ومن جديد عاد صاحب (سيناسيون) فابتنى سفينة مسرحية جديدة هى التى رست فى ذلك اليوم على شاطىء (طيبة) وحملت فيمن حملت اولئك الاشخاص الثلاثة ..

ولم تك بارنى ـ أو بارتينيا ان هوكس ـ بالحمقاء التى لاتدرك ان ثمة شيئا وراء احاديث زوجها عن السفن المسرحية فى الايام الاخيرة : فصاحت فى لهجة الامر المحنق .

ـ قد لا أدرى شيئا عن اعمال هذه السفن . ولكننى أدرك

جيدا أن ليس من حصف الرأى أن تقضى نهارك فى المرفا بين أهلها وكآهم من الافاقين .. ثم تاتى فى المساء : فتحدث الطفلة عن المسارح والممثلين .

ــ وأى عيبه يشين السفن المسرحية ؟..

ــ بل كلها عيوب صارخة .. أنها تحمل قوما من الافاقين الشريرين . الـ .. الفاسديين !..

فامسك الكابتن اندى بالشعر الكث النابت فى فوديه . كانما يتشبث به . وهتف :

ــ ليسوا أسوأ حالا من زوجك ياسيدتى مسز هوكس .. لقد كنت فى شبابى احد ممثلى هذه السفن ..

وهتفت مانوليا مغتبطة وهى تصفق بيديها الصغيرتين : أحقا كنت ممثلا ؟.. كيف لم تخبرنى بذلك من قبل ؟.. أما كنت تعرفين هذا يا أماه !.

فنهضت الام فى حنق وصاحت فى وجهه : أى حديث هذا يا اندى هوكس اذا كنت تسخر منى أمام الطفلة . فعجبا ان تسخر بمثل هذا الحديث !..

ــ بل هى الحقيقة .. ولقد كنت اعمل على ظهر السفينة (الجنوب الشمسى)

ــ كفى .. لقد كان من الخير انك كتمت عنى هذا طيلة الاعوام الماضية . ولو أننى عرفته لما قبلت الزواج منك .. وعلى كل حال . دعنى أرجو أن تكون هذه أخر مرة تذكر فيها السفن المسرحية فى هذا البيت ..

فعاد يتشبث بشعر فوديه ويقول : انها لن تكون المرة الاخيرة يا بارتى .. فقد ابتعت (زهرة القطن) .

ولو أن صاعقة انقضت على بارتينيا . لما كان لها مثل ماكان لهذا النبا من وقع .

الفصـــل الرابع

كانت حياتهما الزوجية قد اقترنت بكثير من الشـــجار والخصام . ولكن ماحدث فى ذلك اليوم . كان أقسى ما رأته عينا مانوليا فى حداثتها من خلاف بين والديها .. كانت بارتينيا كثيرا ما تعارض أندى وتسفه اراءه . ولكنها اليوم كانت مرعدة كالعاصفة .. كانت روح التقوى فى نفسها ثائرة جامحة ترى فيما قاله أندى مايعيبها ويضفى عليها العار أمام الناس .. حتى لقد أملى عليها غضبها أن تنفصل عنــه . وأن تصحب مانوليا فلايعود يراها بعد اليوم .. طالما كان صاحب سـفينة تحمل على ظهرها ممثلات وممثلين !؟ .

وراحت العاصفة تهز كيان أندى وهو مطـرق الراس . يتشبث باهداب شعر فوديه وهو صامت . ساكن .. حتى أنتصر فى النهاية .. فقد لزم الصمت ثلاثة أيام متوالية وكانت بارتينيا من ناحيتها لاتحادثه خلالها . بل تجعل من مانوليا رسولا يحمل اليه ماتود أن يعلمه . حتى ملت الصـغيرة فى ثالث الايام هذا العمل . وأحست فى نفسها اشــفاقا نحو والدها الذى تبدى لها تعسا شقيا . تحت ســيطرة أمها الصلبة الارادة . العنيدة الرأى . فاعلنت بدورها العصيان

واعتاد أندى أن يتغيب عن البيت سحابة نهاره . بل وشطرا كبيرا من ليله . يشرف على أعمال التجديد التى شاء ادخالها على (زهرة القطن) بعد اذ ابتاعها .. ولم يمض أســبوع . حتى رأت بارتينيا نفسها تميل الى الاهتمام بأنباء ما يدخل على السفينة من اصلاح . ومالبثت أن استجابت للفضول فبدات تسائله ..

وأجابها أندى : بم انبئك ؟.. ارتدى ملابسك وتعالى معى ترى بعينيك كل شىء ..

فصاحت هذا ما لن يكون ..

ـ اذن دعي مانوليا ترافقني اليها .. انها تحب السفن كابيها . اليس كذلك يانولا ؟. الا تودين أن تاتي فترى المكان الذى سيقضي أبوك فيه الاشهر الطويلة بعيدا عنك وعن أمك؟.

وبكت الطفلة اذ سمعت عباراته الاخيرة .. وظلت بارتى عابسة . ولكن شيئا اخذ يزعجها في بكاء مانوليا .. فقد طالما اثارت الطفلة دهشة الجميع بندرة بكائها . على عكس لداتها في العمر ..

وصاحت بها تامرها بالصمت : ولكن الطفلة لم تزدد الاامعانا في البكاء . وهي تحتضن اباها وتضرب الارض بقدميها الصغيرتين .. وحاول أندى ان يخفف عنها : ولكن شقاءها تضاعف .. وجربت بارتى معها كل وسائل الحزم والشدة ولكن بكاءها تحول الى هيستريا هوجاء . راحت تعصف بجسدها الصغير ..

ولم تك ثمة وسيلة لأسكاتها سوى أن تنزل بارتى عن عنادها .. وأن ترافقها مع ابيها لمشاهدة (زهرة القطن) وهى تحت الايدى التى تعمل فى صقلها وتهذيبها وتجديدها ..

ورضخت مرغمة !..

وكانت السفينة الضخمة مستلقية فى الحوض . كمسافر هده التعب . فركن الى الراحة بعد اوبته .. وقد بدا الطلاء جديدا لامعا على بعض جوانبها . وكتب عليها بحروف ضخمة عريضة . كما يكتب على المسارح الشعبية عندنا :

مسرح (زهرة القطن) ـ لصاحبه الكابتن أندى هوكس

وصعدت بارتى الى سطحها متافقة .وهى تجمع اطراف ثيابها كانما تخشى ان يصيبها دنس اذا هي مست السطح

وهالها أن ترى شرفات تجعل للسفينة منظر السوت .. واعمدة زينت بابدع النقوش .. وأبواب .. ونوافذ ..

وقادها أندى الى المسرح فوقفت ترقب المقاعد والمقاصير مبهوتة : ثم تساءلت

ـ وأين المطهى ؟..

فهبط بها اندى الى المكان المعد لغرفة الموسيقيين . ثم عرج بها الى باب فى أسفل خشبة المسرح . نفذا منه ومانوليا تتبعهما الى حجرة طعام رحبة تشغل الفراغ الشاغر تحت الخشب منخفضة السقف . ولكنها منسقة . تكفى موائدها لبحارة السفينة وممثليها وكل من تحمله ..

واشار اندى الى مائدة فى الصدر . تتسع لستة أشخاص وقال : وها هى ذى مائدتنا ..

فاجفلت بارتى .. ولكن وميضا فى عينيها أشعر أندى ان عنادها قد هبط عن ذى قبل .

وانتقل الثلاثة الى المطهى الملحق بقاعة الطعام .. والذى بدا مرتبا فسيحا كما لو كان قد أعد فى بيت من البيوت الكبيرة الانيقة .. وقال اندى :

ـ ان جو وكينى يتوليان العناية به .. فالاخيرة تقوم باعداد الطعام . والاول يعمل فى تنظيف الاطباق . وخدمة الموائد..

ولسوف يلحقان بالسفينة فى أبريل عندما تتاهب للرحيل فقد عملا على سطحها ماينوف على العشرة أعوام . وهما يشفقان أن يفارقاها بعد هذا العمر ..

ومضت بارتينيا تفحص أدوات المطهى فى عناية ربة البيت الولوع بكل مايتعلق بالتدبير المنزلى أو يمت اليه بصلة ..

وهى تعجب لضخامة الموقد . وكبر الاوانى والاوعية ..

وطاف أندى بزوجه وطفلته بعد ذلك على الحجرات التى اعدت للمثلين والممثلات كانت قمرات صغيرة ضيقة . منخفضة الاسقف . فصاحت مسز هوكس فى غير وعى وقد تناست ما كان منها :

ـ وهل تتوقع أن أرضى العيش فى مثل هذه الاوكار الضيقة

فصاحت مانوليا من خلفها : ولم لا ؟.. اننى احب العيش فيها .. انظرى الى الفراش الصغير .. وهذه المرآة

وقال أندى : طبعا لا يابارتى .. تعالى أريك ما أعددت لك وللطفلة ..
وعبرا خشبة المسرح ومانوليا فى اثرهما . الى درجات تقود الى الشرفة الكبيرة ومنها الى بابين يؤديان الى حجرتى نوم فسيحتين . أذهل بارتى ان تراهما تضارعان حجرة النوم فى البيت القائم فى المدينة .. بل وتبزانها بما تحتويان من متاع ورياش .. فمدت أصابع خبيرة الى صيوان فى احدى الحجرتين . فازاحت بعض الاتربة .. وقالت
ـ يا للتراب !.. سيكلفنى هذا عناء كثيرا .. ولابد لى من أن أعد بعض الستائر أيضا
وهم أندى أن يصيح طربا اذ أحس أنها رضيت اخيرا .. ولكن شيئا غريزيا أوحى اليه بالصمت ..
ودلف هو ومانوليا الى الشرفة .. نفسان تشعران بشعور واحد . وتفهم كل منهما الاخرى .. وتبعتهما بارتينيا بعد برهة .. وفجاة . سمعت اصواتا مرحة تحت السلم . وضحكات نساء .. واندفعت بارتى . فاذا هى وجها لوجه أمام امرأتين فى زينة صارخة . أقبلتا هارعتين . فتجنبتاها وارتميتا على عنق الكابتن اندى تقبلان الشعر الكث النابت فى فوديه وصاحت احداهما
ـ أوه ياعزيزى الكابتن هوكس !.. الم يدهشك أن ترانى؟ ألم يسعدك حضورى ؟.. لقد اقبلنا من كايرو خصيصا لنراك (وزهرة القطن) اليانعة .. وقد صحبنا دوك ..
فاحاطهما أندى بذراعيه وراح يعتذر ليتمالك الموقف اذ أبصر بارتى ترقبهم وشرر الغضب يتطاير من عينيها .. بينما كانت مانوليا تتطلع الى المراتين فى دهشة وقد عرفت فيهما تلكما الممثلتين اللتين صادفتاها ذات يوم عند باب البيت فى طيبة . ولمحتها كبراهما فصاحت
ـ عجبا يا أيلى !.. هاهى ذى الفتاة الصغيرة !..

فنظرت الاخرى الى مانوليا وقالت . أية فتاة صغيرة !..
ـ ذات الابتسامة الخلابة ..
وجرت مانوليا نحوها . فاسلمتها يدها . وراحت تتامل وجهها وهي تبتسم .. وقالت بارتى اذ ذاك منذرة
ـ ها .. ماجى هوكس !..
فصاحت ايلى . أو . يا الهى !. انها تلك الـ ..
ثم أحست كان فى الجو خطرا . فامسكت عن الكلام . وضحكت . ثم .. صمتت ..
وتخلص آندى من المرآتين . وخف لاصلاح الموقف قائلا فى ابتسامة مصطنعة .
ـ الا تحييا زوجتى مسز هوكس ؟.. بارتى . أقدم اليك جولى دوزيبر من أعضاء فرقتنا . واحدى الممثلات المشهورات فى النهر باسره . فضلا عن كونها حسناء مشهود لها .. وهذه الجميلة الصغيرة هى ايلى شيلي . التى تدعوها الاعلانات باسم لينور لافيرن .. لاعبة الادوار الاولى فى فرقتنا . والمعروفة من (دولوث) حتى (نيواورليانس) .. ولكن أين دوك؟
وفى حركة مسرحية . بدا دوك قادما الى السفينة . وهو يلوح بذراعيه صائحا . ولاح وجهه عندما اقترب فاذا هو وجه رجل فى نحو الخامسة والخمسين من عمره عركته الايام وان الانت قسماته مخائل الشفقة والرقة .
ووصل أخيرا . فقال آندى . أهكذا تسبقك الفتاتان ؟..
حيى دوك يابارتى .. ان له اسما اخر . ولكنه عرف فى العالم كله باسم دوك .. انه يرأس فرقتنا . ويضع صيغة اعلاناتنا ويقوم بتسعين عملا اخر ..
وتقدم دوك فى وجوم . فارسل الى مياه النهر بصقة أودعها الطباق الذى كان يلوكه فى فمه ثم قال لبارتى . سعيد بمعرفتك
فاشار اندى الى مانوليا وقال . وهاك ابنتى مانوليا التى طالما سمعتنى اتحدث عنها

فهتفت . أهلا .. أهلا .. ياعينيك !.. لايجب أن يفسدهما المسرح فى مستقبل الايام !»
وهنا غمغمت بارتى مستنكرة . فتحول اليها وقال يصاح خطاه
ــ لعلك ستسمحين بمرافقتنا فى رحلتنا الاولى ليكون ذلك فالا حسنا لنا ياسيدتى ..
فراحت مسز هوكس تنقل بصرها بين وجوه الممثلين الثلاثة برهة . ثم تنهدت وقالت
ــ اجل ..
وبهذه الكلمة قطعت بارتينيا ان هوكس صـلتها بالبر . وبالمنزل الصغير الهادىء القائم فى طيبة . واصمت أذنيها عن كلام الناس وماكانت تسمعه من اشاعات اسوء عن الاوساط المسرحية . ووقعت صك تعاقدها مع النهر . الذى لم تلبث أن اصبحت سيدة امرة ناهية على سطحه ..

الفصـل الخامس

أقلعت السفينة أخيراً . مع مقدم الربيع . وراحت تشق طريقها فى المسسبى . مارة بما على شواطئه من صور متباينة وغرائب ماكانت بارتى لتحلم يوما أن تراها ..
وهكذا عادت (زهرة القطن) الى الحياة من جديد . تجر خلفها القارب البخارى (مولى آبل) متنقلة بين أحضان الامواج من نهر الى نهر .. ومن المسسبى العظيم الى فروعه الكثيرة ولم تكن بالنسبة الى سكان المدن والقرى والمزارع القائمة على جانبى الميسسبى . بالحدث الجديد . فقد اعتادوا أن يرحبوا بالسفن المسرحية كل عام . مذ مخرت عباب النهر أول سفينة من نوعها سنة ١٨١٧ ومع ذلك فقد تراءت لهم (زهرة القطن) محوطة بشىء من الجدة والغرابة اذكى فضولهم
واقبل الصيف .. وانقضى .. كحلم داعب عينى مانوليا الصغيرة فى ساعة من سويعات النعاس . لايعكر صفوه سوى

شبح الخريف .. والعودة الى البيت القائم فى طيبة .. والحياة العادية المملة لطفلة مثلها . يتعين عليها ان تذهب الى المدرسة وان تحبس نفسها بين جدرانها من الصباح الى مابعد الظهر ومع ذلك فقد عاشت مانوليا أشهر انصيف كاميرة من اميرات الخيال .. الى ان حان الربيع التالى ..

ومضت السنين على هذه الوتيرة . والنهر يفرض سلطانه على مسز هوكس ومانوليا شيئا فشيئا . فتزيد مدة مكثهما بين أحضانه على ظهر السفينة . ويتناقص أمد اقامتهما على البرسنة بعد أخرى .. وكم كان يغيظ بارتى أن تزمع السفينة الشروع فى رحلتها السنوية قبل انتهاء موسم دراسة مانوليا بشهرين .. فتصر على الا تبدأ الرحلة . وتؤكد انها ستبقى بالصغيرة حتى ينتهى العام الدراسى ثم تلحق بالسفينة أينما كانت . وتصيح فى سخطها الدائم المعهود

ـ آندى هوكس .. لن تكون لى ابنة تنشأ جاهلة لاشىء الا لان أباها يقضى العمر متجولا على صفحات الانهار . معثلة من الكسالى المهرجين ..

ولكن .. ما أن تتحرك السفينة . حتى تكون مسز هوكس على سطحها . منهمكة فى تثبيت الستائر الجديدة . والاشراف على كل من فى المطهى . والتنغيص على افراد فريق التمثيل . وفرض سلطتها على السفينة باسرها .. مستعينة بما بقى لها من ذكريات ماقبل الزواج ـ حين كانت تعمل كمدرسة ـ فى تعليم مانوليا .. وكم كانت مانوليا تتحايل على انتهرب من دروسها .. وكم عضت على شفتيها وقطبت مابين حاجبيها . ورمقت أمها بنظرة من تحت أهدابها وصاحت

ـ ماذا يهمنى أن أعرف حاصل ضرب التسعة فى السبعة؟ ان ابلى نفسها لاتعرف . فقد سألتها فاجابتنى انها لم تحصل فى حياتها على تسعة من اى شىء من الاشياء .. لاتعرف رغم أنها أجمل المخلوقات بعد جولى . وبعدى اذا ما أبتسمت..

ثم ان اسمى لم يكن ماجى هوكس فى يوم من الايام .. انه مانوليا ما .. نو .. ليا ..

ـ وماذا فى ذلك ؟.. اذا حدثتنى بهذه اللهجة مرة أخرى أيتها السيدة الصغيرة فلن أتوانى عن أن أصفعك

ومع ذلك فقد ظلت مانوليا لاترى معنى لدروس الحساب التى ترهقها بها أمها لا ولا لدروس الجغرافيا . فقد كانت تعيش فى «الجغرافيا» نفسها وتلمسها بيدها . لقد طافت بالانهار على ظهر السفينة . ودرست الناس لكثرة ما رأتهم وعرفت أغانى الزنوج . وشقشقة العصافير . و .. فن (الماكياج) وأدوار ممثلى فرقة (زهرة القطن) فى المسرحيات المعدودة التى لم تتغير قط .. كانت كل هذه دنيا الفتاة الصغيرة التى لم تتعد اذ ذاك العاشرة من عمرها .. وهى دنيا مليئة بالايام العذبة لايكدر من صفوها غير وجود بارتى بارادتها الحديدية وتحكمها العنيد ورقابتها القاسية .. الاشياء التى لم تكن تقنع بفرضها على زوجها ومانوليا .. كانت تتمادى فتثقل بها عواتق كل رجل على سطح السفينة . وعلى ظهر القارب البخارى الملحق بها .. حتى بات الكل يرهبونها ويخشون أن يحيدوا عن أوامرها خوفا من لسانها .. وحتى ذاع فى أحواض الانهار التى كانت ترتادها السفينة . أن (زهرة القطن) هى أحكم السفن نظاما . وأحسنها ادارة . وأغناها عدة وعتادا ورجالاً .

وهكذا صارت حياة مانوليا خليطا من الفوضى والنظام .. وغدت تربيتها مزيجا من التهاون والشدة .. فانسابت الى تيار الحياة وكانما خلقت للحياة .. ولولا بارتى لافسدتها مخالطة ممثلى السفينة ..

والواقع أن مسز هوكس وفقت فى توطيد دعائم دكتاتوريتها على سطح السفينة حتى أصبح وقع قدميها مالوفا لكل اذن فكانت حركة دائمة . بين غدو ورواح . تشرف على كل شىء

ولقد حدث فى أول عهدها بفرض سيطرتها . ان سالتجولى يوما عن الوقت .. وكانت هذه تجلس متراخية فى مقعد مريح على ظهر السفينة . تتسلى بالتطريز . وهى لاهية غارقة فى افكارها . فاجابتها

ـ وما يعنينى أنا ؟

وكان هذا الرد كفيلا بعد ذلك بتقييد حرية الممثلين أثناء النهار .. فلم يعودوا يستمتعون بفوضى تناول طعامهم متى شاءوا . أو الايواء الى مضاجعهم فى ساعات متاخرة .. بل أصبحوا يخضعون لمواعيد منظمة .. وكانوا دائما فى شجار مع البحارة لا ينقضى يوم لايتبادلون خلاله الشتائم . او يشتركون فى معركة أو اثنتين .. ولكن (الديكتاتورة) الرهيبة عرفت كيف تجعل الذعر وسيلة لايقاف كل هذه الفوضى .. فلم يعد الممثلين أن يختلطوا بالبحارة . لا ولا لهؤلاء أن يختلطوا باولئك . الا نفر منهم كانوا يعملون فى موسيقى الفرقة . الى جانب عملهم الملاحى ..

ومع ذلك . فقد كان فى اتساع نطاق مملكة بارتى . خلاصا لمانوليا من بعض رقابة أمها .. ولولا انها ورثت عنها بعض تقواها لطغت الدماء الفرنسية التى ورثتها عن ابيها ولساعدت مع ذلك الوسط على افسادها .. فقد كانت الصغيرة تعيش فى كل حركة من النشاط الذى يشيع على سطح المركب . اذا استثنينا التمثيل وما تقوم به الفرقة من تجارب (بروفات) قبل حفلاتها .. وان كانت عيناها الزرقاوان وأذناها قد حرصت على استيعاب كل حركة تصدر وكل كلمة تقال خلال هذه التجاريب وخلال تمثيل المسرحيات التى تقدمها الفرقة للفلاحين والمزارعين وأهل شواطىء الانهر التى تنساب فوقها السفينة ..

وأخذت الحياة تسير على ظهر السفينة على وتيرة معينة على (روتين) ثابت منظم ..

ورضخت ايلى ــ أولينور لافيرن ــ ممثلة الفرقة الاولى ورضخ زوجها شولنزى ــ او كما كان يدعى فى الاعلانات ــ هارولد ويشبروك ــ مدير الفرقة وممثل الادوار الاولى أمام زوجته.. ورضخت مانونيا رضخ كل هؤلاء لارادة «الديكتاتورة» الصلبة العنيدة ..

فكانت مانوليا ترى ايلى فى ثوب بسيط ــ بعد أن كانت تخطر على المسرح فى الامسية السابقة فى الحرير والديباج ــ جالسة الى مائده الافطار كل صباح . وقد حجبت عينيهـا خلف نظارة فضية . كانت تحرص على أن تبدو بدونهـا أمام الجمهور . وكانت ايلى أسبق الملبين لجرس الافطار .. يليها زوجها ــ شولنز الشاب ذو الثياب المحكمة الالتفاف حول جسمه . والياقة المرتفعة الاطراف .. وكانت مانوليا ممن لايستسيغون الافطار . ولكنها مضطرة الى ان توافى المائدة تحت اصرار أمها .. فكانت تفد متاخرة .. ولاتكاد تجلس. حتى يفد اندى وقد تاخر هو الاخر .. على انه كان سريع الالتهام . فكان لايلبث أن يغادر المائدة قبل أن يفارقها أحد ممن سبقوه اليها . وقد راحت أصابعه تتخلل شعر فوديه فينطلق الى سطح المركب يشرف على كل شىء فيهـا . فى خطوات سريعة وحركة خفيفة .. وكانت جولى تقبل دائما مع ستيف . سواء كانا متاخرين اومبكرين .. فقد كانادائما متلازمين . رغم أن جولى كانت تقوم بالادوار النسائيةالثانية كدور الاخت الكبرى للبطلة . بينما كان ستيف يضـــطلع بادوار العزال أو الاشقياء او اية شخصية تناوىء البطل.. ولعل السر فى تلازمهما يرجع الى أنهما كانا متحابين اشـــد الحب .. ولطالما تغامزعليهما الزملاءولكنهما كانا لايعبآن بشىء كانت الرابطة التى تربطهما من نوع غير مالوف يجعل كل فضولى او متطفل يتراجع خجلا .. وكانت نظرة واحدة من عينى جولى العميقتين المحوطتين بالغموض . المشوبةنظراتهما

باسم خفى دفين .. كانت نظرة واحدة منهما كفيلة بان تميت الكلام على طرف لسان المتحدث ..
ولقد رأتهما مانوليا ذات مرة يتبادلان القبلات . وكانت تجول على ظهر المركب فى جنح الظلام حين صادفتهما.. وكانت القبلات التى من هذا النوع غريبة عنها فما رأت مثلها بين والديها من قبل ولم تكن «السينما» قد سجلت بعد فى تلك الايام شيئا عن قبلات العشاق .. وكان ستيف يضم جولى اليه فى عنف . بينما أمالت هى رأسها الى الخلف . وأغمضت عينيها من فرط النشـوة ..
وما ان فطنا الى الصغيرة التى سمرت فى مكانها حتى أرسلت جولى ضحكة قصيرة خافتة .. ولكن وجهها لم يمتقع أو يضرج بحمرة الخجل .. بل اتسعت عيناها حتى تراءتا كبحيرتين رقراقتين فى وجهها الابيض المرمرى اللون.. وقد أومض فيهما بريق عجيب جعل مانوليا تسائلها
ـ ماذا يجعلك تبدين هكذا . وكانك ترسـلين هالة من النور حولك ..
فاجابتها ببساطة . انه .. الحب !..
وماكان لمانوليا ان تدرك شيئا عنه اذ ذاك . ولكنها تذكرت الكلمة وفهمت ماتنطوى عليه من معنى .. بعد ذلك بسنوات
فاذا انفض الجميع عن موائد الافطار . تحولت ممثلات الفرقة الى تنظيف وترتيب حجراتهن وحجرات رجالهن .. ومتى حانت الساعة العاشرة . بدات (البروفة) للمسرحية المقرر عرضها فى المساء
وكانت السفنة اذا أشرفت على بلد أو قرية تعتزم الرسو فيها ليلة او ليلتين . تعلن مقدمها بما ترسله من انغام البوق الضخم الذى كان الكابتن اندى بفخر بانه اول بوق ينفخ بقوة البخار عرفه المسيسبى اونهراته .. فاذا ما اقتربت السفينة من البر برز افراد فرقة الموسيقى على سطحها . فراحوا

يبثون الحانهم وهم فى أرديتهم الزاهية وقد جلوا عن الاتهم ماعلاها من صدأ . فبدت متلائمة براقة تحت أضواء النهار حتى اذا قارب النهار الانتصاف . هبط الموسيقيون الى البر وشقوا طريقهم خلال الشارع الرئيسي المؤدى الى الميدان الذى يتوسط البلد أو القرية . حيث يعزفون أبدع الحانهم . واذ ذاك يسارع أهل القرية أو البلدة الى الالتفاف حولهم . وتطل الغادات من النوافذ المشرفة على الميدان . وتترك ربات الديار مافى أيديهن من أعمال ليقفن بالابواب يتاملن هذا المنظر الذى لايتاح لهن الا مرة كل عام .. وفجـاة يبرز أندى وكانمـا انشقت عنه الارض فيوزع على القوم الاعلانات التى أعدها وملأها مديحا وأطنابا فى ممثلى الفرقـة وفى المسرحيـات المنتظر عرضـها .. حتى اذا انصرفت الفرقة الموسـيقية عائدة الى السفينة ، وانفرط عقد المتجمهرين حولها .راح يجمع ما ألقى به القوم من هـذه الاعلانات الى الارض ، فى عناية وحرص ..

وعند الساعة السادسة ، تدب فى السفينة بوادر حياة جديدة .. وتتـلألا بعض مصـابيحها .. ويتـدفق سيل الاهلين القادمين من البـلدة ومن المزارع المجـاورة ، بينما تصدح الموسيقى . فتختلط الحانها باصـوات المزدحمين حول نافذة بيع التذاكر فوق سطح السفينة ..وكانت هذه أحب الساعات الى نفس مانوليا .. فقـد كانت تجـد فى النشاط والاضواء والحركة والصخب ، ما ياسر لبهـا .. ولـكنها كانت لا تلبث أن تحمل الى فراشها وهى تـكافح وتناضل فى صراخ وعويل ، وتصيح :

ــ دعينى أمكث حتى ينتهى الفصل الاول ..

فتصيح أمها مزمجرة . لن تمكثى لحظة واحدة ..

ــ اذن .. حتى ترفع الستار ..

ــ قلت لك الجاى الى فراشك والا حرمتك من النزهة

غدا مع دوله على الشاطيء ..

وكانت أقاصيص دوك عن القراصنة وقطاع الطرق الذين عاشوا على شاطيء النهر منذ انقدم تبعث فى مانوليا خوفا مستعذبا ، وشوقا يجعلها تتحرق لهفة الى اللحظة التى يصحبها فيها دوك .. لذلك كانت لا تلبث ان تنصاع لاوامر أمها ، فتاوى الى فراشها .. ولكنها كانت تظل يقظة مرهفة الاذنين تنصت الى الحوار الذى يدور على المسرح . والذى كان ينساب اليها واهنا خافتا خلال أبواب الشرفة المغلقة .. وتحس بمتعة وهى تميز لهجات الممثلين والممثلات ، بما تنطوى عليه من كراهية أو حب ومن ياس أو أمل . ومن فرح أو جزع ..

وحدث مرة أن تسللت مسز هوكس الى مخدع الفتاة الصغيرة فراعها أنها لم تجدها فى فراشها .. وراحت تبحث عنها فى لهفة وذعر حتى وجدتها وقد تسللت من الشرفة وتعلقت بنافذة تطل على المسرح . غير عابئة بما تتعرض له من خطر السقوط فى النهر — وانما اقنعها الحادث بانه من العبث أن تحاول أن تنشيء الطفلة التى تعيش على سطح مسرح عائم . على ماكانت تنشيء عليه بنات المدرسة الالزامية التى كانت تعمل بها قبل زواجها .. ومن ثم سمحت لمانوليا أن تمكث أثناء التمثيل .. وكانت الصغيرة تنسحب من تلقاء نفسها فتاوى الى فراشها . اذا ماوصلت المسرحية الى عقدتها الخطرة .. اذا رأت أمامها الحب يضيع . أو الشر يتغلب . أو الجمال يذبل يخبو . أو الدماء تسفك وتراق .. وكان من العجيب أن تمقت المأساة التى تنطوى عليها هذه المناظر ..

وكان ان حفظت الادوار المتباينة فى كل مسرحيات الفرقة ، عن ظهر قلب .. حتى غدا فى وسعها عندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها . أن تقفز الى خشبة المسرح لدى

أول الشارة . فتقوم بأى دور من ادوار ايلى او جولى .. دون حاجة الى « ملقن » يمدها بما قد يغيب عن البال من أجزاء الحوار !..

كما كان من أسباب المتعة لديها أن ترقب الجمهور المنصرف بكل حواسه الى مراقبة ما يجرى على خشبة المسرح .. وهو جمهور عجيب لم يعرف مثله مسرح آخر جمهور من المزارعين والعمال والزنوج .. من النساء والاطفال من كل نوع .. ومن كل صنف .. وكان عجيبا أن تلاحظ دون ادراك ، ماينطوى عليه قلوب هؤلاء كلهم . من مآس حقيقية حية .. تتمثل فى الدموع التى تراق امام المناظر المؤثرة .. فى اللهفة التى تبدو اذا هدد البطل أو فتاته شر .. وفى تنهدة الارتياح . والزفرة العميقة . التى تنبعث اذا ما انجاب عنها أو عنه شبح الخطر .. كان الجميع يعلمون أن أمامهم دنيا من الخيال والزيف .. ان شيئا مما يمثل أمامهم لايحدث فى الحياة الواقعة الحقة.. ولكن عواطفهم كانت رغم ذلك تروح فى مد وجزر خلال التمثيل .. فهم يسعدون اذا ما انتصر الحب . وتغلب الحق . وارتفع لواء الفضيلة . ومحق الشر .. كانوا يتناسون حقولهم . ومناجمهم . وبيوتهم .. والعمل المرهق المضنى .. والرياح والامطار والفيضان والجليد.. وكل شيء آخر فى غمرة الدفء ، والتمثيل . والضحك والموسيقى .. فى الجو الخيالى الذى يجدون فيه مهربا من عناء الحياة ..

الفصل السادس

هكذا هو المسرح .. المكان الذى يرى فيه المرء أحلامه تبرز امام عينيه فى اشخاص تتحرك وكلام يقال . وحركات ملموسة .. حتى اذا انتهى التمثيل ، نهض من مكانه وهو

يكاد يكون غائب الحس . مذهولا . كشخص قطعت عليه أحلامه ، واوقظ من نوم عذب ..

فاذا خرج الممثلون من تمثيلهم ، وهجر السفينةروادها. وخبت أضواء المشاعل الزيتية التى توقد فى صالة المسرح، اجتمع أهل المركب فى حجرة الطعام ، وكلهم أعضاء أسرة واحدة . يرفرف عليها ملاك السلام ..

حياة هادئة .. ولكنها عجيبة مزدحمة متلونة فى نظر طفلة كمانوليا .. كانت ترى مالم تره صغيرة مثلها .. وكانت تنتقل على ظهر السفينة من مدينة الى اخرى .. ومن بلدة الى بلدة .. ومن قرية الى جارتها .. كانت أفكارها فى حداثتها صور للقصص والاحداث والوقائع التى تتصل بالانهار .. وترتبط حياة الناس فى ذهنها بهذا الخليط الغريب من الصور التى رأتها أو سمعتها .. عن الانهار !. فاذا ذكرت التقاء نهر الاهيو بنهر الساندى ذكرت معه (حانة المأساة السوداء) التى فتحت يوم كانت « زهرة القطن » تعرض مسرحياتها فى « كاتليتسبرج » . المدينة التى قامت عند ملتقى النهرين كانما هى العقدة التى تربط بينهما .. فقد كانت مانوليا ترى وهى على سطح السفينة الجموع التى احتشدت فى انتظار افتتاح الحانة للمرة الاولى .. ثم وصول صاحبها يحمل مفتاحها ، والتجاؤه الى المياه الصفراء الغنيةبالطمى . يغمس فيها المفتاح تيمنا

كانت حياة الانهار بتلونها وتباينها تفصح عما فى أعماقها من أسرار وغرائب أمام عينيها الصغيرتين .. فكانت ترى وتختزن فى رأسها الذكريات لاوقات ينضج فيها عقلها فتفهم كنه ما أغلق فاه فى حينه مما كان يزجيه اليها دون من معلومات عما تراه من صور . وكان غريبا أن لايبدو ميلها الا نحو الانهار الكبيرة الواسعة المترامية .. فكان نهر « الينوس » ذو الهدوء الساجى الذى يهفو بالاعصاب .

والمياه الرقراقة المنسابة فى دعة ورفق . . والضفاف المخضرة الاديم .. كان اليوس اللطيف يبعث الضجر الى نفسها .. وكانت تنصت فى شوق الى ابيها أو الى دوك وهو يقص عليها تاريخه .. وتاريخ غيره من الانهار .. تواريخ حافلة بقصص الرحالة والمستكشفين والرواد والنور والبوهيميين .. وبذكر المحفات المائية . والزوارق الصغيرة والسفن الشراعية . والمراكب التجارية ..

ولطالما قالت والسفينة تحملها على صفحة اليوس : لو اننى كنت نهرا لما نشأت كهذا الالينوس .. انما أود ان أكون كالمسيسبى ..

فيسائلها الكابتن آندى : وكيف يكون ذلك ؟..

ـ ان الينوس ثابت مستقر لايتغير . ولكن المسيسبى دائم التلون .. أنه كذلك الشخص الذى لاتستطيع قط أن تتنبأ بما سيفعله فى اللحظة التالية . والذى تثير تغير طباعه اهتمامك ..

نفسية غريبة .. ولكنها اكتسبتها بالفطرة . وهى بعد طفلة ساذجة لاتفقه من علم النفوس شيئا ..

وكانت تميل الى دوك لانه يحدثها عن قصص الانهار ويرافقها فى بعض الاحايين الى الشاطىء فيشاطرها لعبها ومرحها بين ربوعه .. وكانت تحب جولى لانها تصحبها فى أحايين أخرى الى نزهات بين المزارع المترامية الاطراف على جانبى النهر الذى يحتضن السفينة .. اما ايلى . فكانت لاتكاد تفارق (زهرة القطن) أياما باكملها .. كانت دائمة العناية . مسرفة فى الاهتمام بنفسها . تقضى كل وقتها فى الاغتسال وفى غسل جواربها ومناديلها ، وفى رتق ما لحق بها أو بغيرها من الملابس من خروق .. بينما كانت جولى تقضى سحابة أيامها اما مستلقية فى خمول على مقعد على ظهر السفينة ، مرسلة عينها الى غير ما مقصد أو هدف .

أو متجولة على الشواطىء فى نزهات قصيرة ..

وكم كانت ايلى تهيب بهـا : ويحـك يا جولى ، كيف تستطيعين المكث جامدة تحدقين الى غير هدف ؟..

فتجيبها : وأى شىء استطيع أن أفعل غير ذلك ؟

ــ أى شىء ؟ .. رتقى الثقب الذى فى جوربـك . . على الاقل ..

فتقول مسز هوكس اذا كانت حاضرة : حقـا .. اننى أقرك على هذا القول ..

انها لم تحب ايلى يوما ، لكن ولعتها بالنشاط . والعمل كان يدفعها الى تحبيذ رأيها ..

فتنظر جولى فى غير اكتراث الى ساقها الطويلة وتقول : وهل هناك ثقب فى جوربى ؟..

ــ لست بالجاهلة هذا يا جولى روزير ..

فتنبثق على شفتى جولى ابتسامة ساحرة وتقول : حقا .. وددت لو لم يكن هذا الثقب موجودا .. ولقـد خيل الى عندما استيقظت فى الصباح أن العنـاية الالهية قـد ارسلت ملاكا رتقته أثناء يومى ..

كان صوتها متراخيا مثلها .. ذا رنة عذبة ..

واذ ذاك كانت مانوليـا تبتسم فى عطف .. كانت تحب جولى .. حقا انها كانت ترى ايلى ذات جمال ملكى كذلك الذى تتصف به أميرات القصص الخرافية .. ولكن ايلى كانت اذا غضبت لاتتورع عن سبها ونعتها بما يؤلم نفسها.. أما جولى فكانت تحبوها بلطفها . وكانت بسيطة غير معتدة بجمالها ومواهبها كايلى مما كان يحمل الرجال على أن يولوها كل اعجابهم ويسعوا الى التقرب اليها معرضين عن ايلى .

كان ثمة شىء غامض يبـدو خلف وجهها ذى النـدبات ووراء عينيها الحزينتين وفى أطواء تكاسلها وفى عدم عنايتها بملابسها ومظهرها . وكان هـذا الشىء الغامض المبهم هو

الذى يجذب الرجال اليها ، فيثير ذلك غيرة ستيف ..وما كان أحد من أهل المركب ليجهل الصراع الخفى الذى قام بينه وبين بيت ـ مهندس انزورق ابخارى مولى آبل ـ الذى كان يقوم فى نفس الوقت بانعزف على الطبل الكبير فى فرقة الموسيقى ..

فقد كان بيت يسعى جهده للتقرب الى جولى ، ويتعقبها اذا هبطت الى البر ويحوم حولها فى كل مكان تاوى اليه.. ويرسل اليها من الهدايا ماترهقه تكاليفه بل لقد تجاوز الصراع بين ستيف وبيت حدود الخفاء . فانقلب ذات يوم الى شجار من المشاجرات الحامية .. الوحشية .. الدموية .. ولم يلبث بيت فى نهايته أن وجد نفسه يهوى الى أحضان المسيسبى . ومع ماعرف عنه من مهارة فى السباحة . فانه كاد يغرق . لولا ان ادركه المنقذون .. فاوى الى مولى آبل يضمدجراحه ويجفف ثيابه وهويقسم ان ينزل قصاصه وانتقامه بغريمه وبالمراة معا ..

ولم يحاول بعد ذلك مغازلة جولى .. ولكن تهديداته وتوعداته كانت تلاحقها وتلاحق ستيف .. فامر هذاجولى الا تغادر السفينة وحدها ! لذلك كانت اذا اقبل الربيع . وهفت نفسها الى مرأى الحقول المزدهرة . تصحبمانوليا معها الى البر ..فترتعان وتلعبان متناسيتين تعليمات مسز هوكس التى كانت تقف أمامهما قبيل هبوطهما عن ظهر السفينة . كضابط يقف امام جنديين من فرقته منطلقين فى نزهة أجازها لهم فتقول :

ـ مانوليا .. احكمى وضعقبعتك على راسك .واجذبى طرفها حتى لايؤذى وهج الشمس عينيك .. ولا تجرى ولا تتعرضى للحر والقيظ طويلا .. وعودى قبل الساعة الرابعة .. اياك .. احذرى ..

ولكنهما ما تكادان تطمئنان الى انهما قد ابتعدتا من

السفينة . حتى تتوغلا فى أول حقل يصادفهما . ثم تنزع كل منهما قبعتها عن رأسها فى صمت .. وتبعث جولى من اساريرها ابتسامتها المحبوبة .. ويشرق وجه مانوليا بجمال مباغت .. وتثنى جولى أطراف ثوبها وترفعها عن ساقيها .. وهكذا تعلنان العصيان على أوامر مسز هوكس بعد اذ أمنتا وجودها .. ثم تنطلقان فى الحقول والمزارع غير عابئتين بحرارة الشمس أو وطأة القيظ والارهاق . أو ما يعلق بسيقانهما من أتربة وأوحال .. لتعودا فى نهاية النهار محملتين بالازهار .. فتتقبلان ثورة بارتى وتأنيبه ستيف فى مرح وانشراح ..

على أن أحب الاوقات لدى مانوليا . كانت تلك التى تقضيها فى مطهى السفينة تتنسم بخار الاطعمة اللذيذ الاريج .. وتصغى الى اغانى كوينى وجو فى شغف ونشوة .. وهناء .. فى المطهى .. تعلمت مبادىء الدين على يدى جو . وأصول الطهى على يدى كوينى .. وهما أمران كانا خير عون لها بعد سنوات طويلة بعد أن أصبحت زوجا وأما ..

فكانت ابنتها كيم رافنل الممثلة تعتز بطبق من الطعام تقدمه الى ضيوفها تحت أسم (لحوم على طريقة كوينى) .

وكم سألتها صديقاتها كيف تعدين هذا الصنف ..؟ اننى لا أخاله حقيقيا .. وكأنى به مصنوع من جبس منقوش مضمخ بالروائح الموقظة للشهية ..

فتجيبهن على العكس .. انه لحم حقيقى مشرب (بالمرق) و (التوابل) و (البهارات) .. لقد تلقيته عن أمى التى تعلمته من احدى زنوج الجنوب .. واسمها كوينى !..

وكم نفذت مسز هوكس الى مطهى المركب فجأة .. فاذا بها ترى مانوليا جالسة الى احدى المناضد معتمدة رأسها بين راحتيها وقد استندت بمرفقيها الى المنضدة وراحت ترمق كوينى فى اعجاب وتنصت الى جو وهو يترنم باحدى

اغنيات الزنوج المفعمة بالحنين والشجون أغنيات شعب مظلوم مغبون . اغنيات تمثل الروح وسيطرتها ووحيهاوكم كان الغناء يزداد حلاوة وعذوبة . حين يركن جو أو كويني الى آلتهما الموسيقية المبتذلة . فيرسلان انغامها ترافق النبرات ذات البحة الساحرة .. أو حين يشتركان معا فى أغنية زنجية ناعمة حنون ..وما لبثت أذنا مانوليا أن التقطتا الالحان . وان وعتا أنغامات . وان فطنتا الى البحة التى تزيد النغم حلاوة . والى النبرة التى تضفى عليه روعة .. فراحت تردد هذه الاغنيات كما لو كانت قد ولدت من أبوين زنجيين ورتعت فى مجاهل غابات الجنوب ..

وهكذا كان الزنجيان والبيضاء الصغيرة يجلسون فى المطهى ساعات وهم مستغرقون فى نشوة الغناء .. حتى ينتبهوا الى خطوات سريعة خفيفة تقترب من باب المطبخ .. فيسارعون الى الصمت .. ويجلسون مرهفى الاعصاب . بينما تدخل مسز هوكس متجهمة الوجه متسائلة

ــ ماجى هوكس . هل تدربت اليوم على العزف على البيانو ..

ــ قليلا ..

ــ كم من الوقت ؟

ــ نصف ساعة أو اكثر ..

ــ متى ؟

ــ فى الصباح ..

ــ ولكننى لم أسمعك ..

وتغشى الجبهة الصغيرة سحابة قاتمة .. وتتلاشى من اذنى مانوليا الالحان التى ما زالت تتردد فيهما اصداؤها .. وتجيب فى عنف

ــ لقد تدربت .. جو . الم تسمع عزفى !

ــ بكل تاكيد يا مس مانوليا ..

فتصيح مسز هوكس فى حنق اخرجى حالا من هنا واعكفى على التدريب نصف ساعة أخرى .. أتظنين اباك

يخلق المال حتى ادفع لجورج خمسين سنتا كل أسبوع ... أن تنتفعى بدروسه ؟.. اذهبى ..

فتغادر مانوليا المطهى . وكلمات بارتى تلاحقها

ـ لست أدرى من أين أكتسبت هذا السلوك الشائن وهذه التصرفات الوضيعة !.. ألم تجدى بين البيض من نسرك مجالسته فجئت تندسين بين هذين الزنجيين .. هيا اجلسى الى المعزف !..

فتجلس مانوليا متذمرة الى المعزف الصغيرالعتيق الذى أعد لفرقة الموسيقى على ظهرالمركب .. والذى كانت تتلقى عليه مبادىء العزف من جورج العازف على البيانو فى الفرقة .. فى الفترات التى يرتاح فيها المعزف من التجاريب التى تجرى استعدادا لحفلة المساء .. والواقع أن مانوليا كانت خلال حياتها فى هذا الوسط قد تعلمت شيئا من الموسيقى .. وقد أعانتها على أن تحذق ماتعلمت .. روح موسيقية حبتها بها الطبيعة بالفطرة .. وأنمتها فى نفسها أنغام جو على آلته الزنجية البسيطة .. فقد كان عازفا ماهرا . ولو أنه عاش بعد ذلك الحين بخمسين سنة .. لاكتسب شهرة عريضة .. عندما فطن البيض الى ما لدى السود من روح وفن خيلقين بالا يهملا ..

وتنبعث دقات المعزف تحت أصابع مانوليا الصغيرة وتنساب مع الهواء الى الخارج .. وعبر الصلصلة والزبد خلال نافذة المطهى .. فتتلقفها آذان القرويين وانوفهم . وهم يتسكعون على البر يتاملون السفينة عن كثب ..

ولم يكن ثمة محيص من أن تترك هذه الحياة طابعها فى نفس بارتى ..

فلم تلبث أن نزلت شيئا فشيئا عن تلك السمة التى تسم المدرسات .. وتاثرت لهجتها فى الحديث بما كانت تسمعه من المحيطين بها .. ولكنها رغم ذلك . ظلت تقبض على

اعنة النظام على سطح المركب بيد فولاذية ..
وبدأت بارتى تجد من نفسها ميلا الى مساعدة ايلي وجولى كلما جاستا لحياكة الثياب التى تظهران بها فى أدوارهما على المسرح حتى أصبحت تضطلع بقسط وافر من هذا العمل ..
وكلما هتفت متافقة من كان يتوقع ان أعيش حتى أرى نفسى أحيك الثياب لممثلات ..؟
أجابها آندى فى ملق دعك من التافف يا بارتى . فما اراك الا مشغوفة بهذا العمل ..
ــ شغفت ام لم أشغف .. لاسبيل الى الخلاص . لقد تزوجتك على الخير والشر . فماذا فى وسعى ان اعمل ؟..
ولكن لهجتها كانت لاتدع شكا فى انها استعذبت هذه الحياة الملونة المتباينة التى لاتبعث على الملل والسام

الفصل السابع

ولم تلبث جولى ان غادرت السفينة .. وبذهابها افلت شمس ستيف .. وعرف الاسى سبيله الى قلب مانوليا .. فلقد بر بيت بقسمه . وانفذ وعيده .. واوقع انتقامه .. وان يكن هذا الانتقام قد صار فيما بعد قذى فى عينه ورمادا فى حلقه ..
حدث ذلك فى اليوم الذى رست فيه « زهرة القطن » على شاطىء ليموين فى حوش المسيسيبى لتعرض مسرحياتها فقد اصيبت جولى دوزير فجاة بتوعك .. وفى « زهرة القطن » كما فى أى مسرح اخر على صفحة الماء او على اليابسة . لايقر العرف مرض الممثل .. نعم انه قديمرض وقد ياوى الى فراشه . وقد تفارقه قواه حتى لايستطيع الوقوف على قدميه .. ولكن التقاليد تقضى عليه ان يطرح عنه المرض عندما يحس موعد رفع الستار .

وان يظهر على خشبة المسرح .. وله بعد ذلك أن يموت وكن على الخشبة . أو بعد اسدال الستار

وكانت جولى تعرف هذا وتعلم ان ليموين بلدة كبيرة غنية . تجنى الفرقة منها ربحا ضخما .. وكنها مع ذلك لزمت فراشها فى غرفتها المظلمة . ورفضت كل مساعدة او معونه .. فلم تقبل طعاما .. كل ماتمنته . ان تترك وحيدة .. مع ستيف .. فظلا معا فى الغرفة المظلمة .. يجزعن اذا عثر عليما خلوتهما احد .

وظهر دوك أخيراً بباب الغرفة وسالها عما اذا كانت ترى فى نفسها القوة على أن تقوم بدورها فى المساء فلمعت عينا جولى فجاة . وتبدى فيهما الذعر .. واستوت فى فراشها جالسة . وجمعت خصلات شعرها المضطربة المتناثرة حول راسها وصاحت فى شيء من الخوف

ــ لا !. لا !. لن أستطيع التمثيل الليلة .. لاترهقنى..

وارتسمت على وجه دوك علامات الدهشة .. وكانما لم يفقه ماسمع فقد كان غريبا أن تعلن ممثلة انها لن تستطيع التمثيل . قبل موعد رفع الستار بعشر ساعات ..

وصاح أخيراً ليرحمك الله ياجولى !.. اذا كنت مريضة الى هذا الحد . فمن الخير أن تعرضى نفسك على طبيب .

ونظر الى ستيف . كانما يستنجد به .. وكن العملاق الاشقر أشاح عنه بوجهه . وظل فى مجلسه الى جوار المريضة يرمقها فى عطف وألم .. ثم قال

ــ أن لجولى آراء غريبة فى الاطباء . فهى لاتؤمن بعلمهم فلا تحاول اغراءها . فان هذا يزيد حالها سوءا

واقبل شونزى . فاطل براسه فى الحجرة المعتمة وصاح

ــ لقد حدث حادث عجيب جعلنى أعتقد أن فى هذه البلدة معجبا شديد الولع بك ياجولى .. فقد سرقت صورتك من الردهة .. وظننت فى بادىء الامر ان اسارق

هو ذلك الشاب المتهوس . بيته .. ولكن . مهلا ياستيف .. لقد سالته بنفسى فاذا به يدهش للحادث . وماعرفته يوما يجيد التمثيل واصطناع المواقف .. لا . لم يكن هو اسارق .. لابد انه احد المعجبين بك من اهل البلدة يا جولى .. وعلى كل حال . لقد علقت صورةأخرى مكانها

واقبلت ايلى تقول

ـ انني هابطة الى البلده يا جولى . فهلتودين أن أحضر لك شيئا . أو أن ابتاع لك دواء ؟..

فهزت جولى رأسها .. وقال ستيف

ـ انها لاتريد شيئا .. شكرا لك ..

كانما كان الاثنان يرزحان تحت عبء من التوتر يرهق أعصابهما .. واحس به الاخرون وهزت ايلى كتفيها وانصرفت .. وهم شولنزى بالانصراف قائلا

ـ ستكونين بخير عندما يحل المساء ..

فقال دوك بصوت خافت . وهو مازال فى حيرة وعجب

ـ انها تقول انها لن تمثل الليلة ..

فصاح شولنزى ماذا ؟.. لعلها مريضة حقا

ثم صاح باعلى صوته ليسمع آندى وبارتى وكانا يجلسان خلف نافذة بيع التذاكر

ـ كابتن !.. كابتن !.. تعال .. ان جولى مريضة .. ومرضها يمنعها من التمثيل ..

فنهض آندى واقبل مسرعا .. وهو يقول لنفسه

ـ لقد بلغ ما بيع من التذاكر لحفلة هذا المساء رقما قياسيا .. هذه أول مرة تعرض فيها مسرحياتنا فى هذا البلد .. ومع ذلك فان اكثر من نصف المقاعد قد حجز مما يبشر بايراد حسن ..

وبلغ غرفة جولى فاذا بنفر من أفراد الفرقة قد سبقوه فاحتشدوا ببابها .. فنفذ الى الداخل دون استئذان .

وانحنى يتفرس فى وجه المريضة ..والتقت عيناه بعينيها. فقرأ فيها شيئا جعله يربت على يدها ويقول

ـ لم يا جولى ؟..ولكن . هلاانصرفتم ياقوم وتركتمونى على انفراد مع جولى وستيف ؟

كان خبيرا فى وسعه أن يفرق بين الالمانفسانى والسقم الجثمانى ..

وكاد الجميع أن ينصرفوا ..ولكن بارتى تذكرت ان ثمة شيئا قد تكون له صلة بمرض جولى فقالت تحدث زوجها

ـ أتذكر أن جولى مرضت عندما رسونا فى هذه البلدة فى العام الماضى .. فما أن أعان دوك أننا أن نمثل فيها شيئا . لان الضريبة التى طلبها العمدة باهظة .. حتى برئت جولى فجاة ؟؟..

فساد صمت ثقيل عميق

وقال الكابتن أندى أخيرا فى صوت أجش . لست أرى ما يلفت النظر فى هذا التوافق بين الحادثين . فجو هذه البلدة قائظ مرهق . وطبيعى أن تعتل صحة جولى اذ انتقلت اليه من جو الشمال البارد ..

ثم أرسل أصابعه خلال شعر فوديه .. وزمجرت بارتى مستاءة .. ولكن مانوليا أقبلت فى تلك اللحظة صائحة

ماما !.. اسمعى !.. لقد سرقت صورة جولى مرة أخرى جولى . لقد سرقوا صورتك المرة الثانية .

كانت فرحة مزهوة اذ كشفت هذا الحادث الجديد ولكنها ما لمحت وجه جولى على الوسادة . حتى أسرعت الى الفراش هاتفة .

ـ اوه ياجولى .. ياعزيزتى . اننى اسفة لمرضك ..

فاشاحت جولى بوجهها .. ورأى الكابتن أندى أن القوم لم ينصرفوا . فتقدم نحوهم فى غضب وصاح

ـ وبعد الا تريدون الانصراف !.. عجبا لكم ! كانه ليس

من حق اى فتاة او امراة ان تمرض !.. هيا انصرفوا ..
واذهبى يابارتى انى نافذة التـذكر واوقفى البيع وانت
ياراف اكتب اعلانا عن ارجاء حفة الليلة وضعه على جدار
مكتب البريد أواثقة أنت ياجولى من انك لن تتعافى مع مقدم
المســـاء ؟..

فالقت جولى بنفسها بين ذراعى ستيف وانفجرت باكية
وهى تصيح فى صوت مرتفع

ــ لا !.. لا !.. دعونى وحدى .. دعونى وحدى ..

وسمع القوم وقع قدمين مقبلتين . فتجلى الذعر فى عينى
جولى . وتحول الجميع ليروا ويندى . ماسك دفة مولى
آبل . مقبلا متجهم الوجه .. حتى اذا اقترب من الباب رفع
قبعته ومسح على فمه بيـده . ووقف برهة يطل داخل
الحجرة . ويلوك مضغة من الطباق فى فمه دون أن ينبس
بكلمة .. واخيرا قال . يبدو أن ذلك اللعين بيته . يعد أمرا
وتوقف .. وارهفوا اذ انهم منتظرين ..

لقد هبط الى البلدة منذ نصف ساعة وكانما يضـمر
أمرا خطيرا .. بعد أن نزع صورة جولى من الردهة ..
فقد رايته بعينى . وماكنت لاكذب بصرى بعد خبرة السنين
التى قضيتها فى البحر .

فوثب ستيف واقفا وهو يقول . ساقتله هذه المرة
ولكن ويندى عاجله مقاطعا . كما رايتك تنتزع الصورة
فامتقع وجهه .. واتسعت حدقتاه .. وهتف

ــ كلا .. لم أفعل ..

واستوت جولى جالسة . ثم أطلقت ضحكة جوفاء وقالت

ــ وماذا يفيد من سرقة صورتى .. انها صورة زوجته

فقال ويندى . لعله أراد بذلك الا يراها احد من اهل
البلدة .. ان حياة الانهار تكسب المرء حدة فى البصر .وقد
عشت على سطح النهر خمسين عاما . فاسمعوا .. لقـد

هبطت ألان من حجرة القيادة لانذركم . فقد رايت بيت قادما مع (ايك كينر) .. عمدة انبلدة

فصاح أندى . فيات العمدة .. نقد دفعنا الضريبة . ولسنا نخشى قدومه

ولكن أحدا لم يسمع كلماته . اذ حدث فى تلك اللحظة امر غريب . فقد وثبت جولى من فراشها وشعرها متناثر حول وجهها . وأحاطت بساعديها عنق ستيف

وفى الحال . أخرج ستيف من جيبه نصلا .. وامسك يدها فى رفق . ثم اجرى النصل على قمة أبهامها فانبثق الدم وانحنى ستيف وامتص قطرة من دمها السائل .

ولم يكد يفعل ذلك حتى دخل العمدة . فاجال الطرف بين القوم ثم سأل . أيكم صاحب هذه السفينة ؟

فاجاب آندى

ــ أنا هو . فماذا تريد ؟

وراح يتامل العمدة ويصعده بعينيه .

ــ انني قادم فى مهمة قد لاتسرك ياكابتن .. لقد علمت ان على ظهر سفينتك اثنين يطالبها القانون ..

فتساءل آندى . كيف ؟..

ــ لقد خرقا القانون . بزواج غير مشروع .. زواج امراة من أصل زنجى . من رجل أبيض .

فهتف آندى

ــ لم يحدث شيء من هذا فى سفينتى . وليس بيننا مثل هذين المتهمين ..

فقدم اليه العمدة ورقة وهو يقول :

ــ ان اسم الرجل الابيض هو .. ستيف بيكر . واسم المراة التى من أصل زنجى رغم بياض بشرتهـــا هى .. جولى روزبير

فصاحت ايلى .

ـ يا أنهى !.. أحقا هذا ؟؟
وهنا تحول ستيف الى النافذة ففتحها فتسرب ضوء النهار يغمر المكان.. بينما ظلت جولى مستلقية على الفراش ثم تقدم الى العمدة قائلا .
ـ انا ستيف بيكر .. وهذه زوجتى
فقال العمدة . اذن . أرجو أن تصحبانى
ـ لعلك تعرف أن الرجل الابيض لايعتبر كذلك اذا سرى فى جسده دم زنجية ؟..
ـ طبعا .. أعلم ذلك .
ـ حسنا .. ان جسدى ملىء بالدم الزنجى .. فزواجنا اذن شرعى وقانونى
ـ اتقسم على صدقك أمام المحكمة ؟..
ـ بل اقسم فى أى مكان شئت .. بل وليس بين هؤلاء الموجودين جميعا من لايقسم على صدق قولى ..
فاجال العمدة بصره بين الموجودين . ثم قال .
ـ الحق اننى رايت زنوجا أبيض منك بشرة .. ومع ذلك فيحسن أن تدلى باقوالك أمام ..
فقاطعه ويندى قائلا
ـ لعلك تعرفنى يا أيك رغم أن خمسة وعشرين سنة قد انقضت منذ افترقنا .. انا ويندى ماكلين
.. آه . ها انتذا قد ذكرتنى . اذن فاسمع .. اننىأقر أمامك أن فى جسد هذا الرجل دما زنجيا . واقسم علىهذا
ثم تحول دون أن ينتظر جوابا . وغادر الحجرة . وقطع سطح السفينة الى السلم المؤدى الى حجرة القيادة
وتجلت الحيرة على وجه العمدة .. وتمتم فىصوتمرتفع
ـ اننى أعرف ويندى حق المعرفة .. ولكننى حصلت على المعلومات من شخص تنم الظواهر على صدقه
فهتف آندى فى حدة

ـ لعله المهندس المأفون المدعو بيت ؟.. انه لم يفعل ذلك الا لانه لاحق جولى بمغازلاته . دون أن تعبأ به .
ـ اصحيح هذا ؟..
فاجاب ستيف
ـ أجل .. كان يطارد زوجتى رغم انها تمقت مرآه . ولقد انبه الكابتن بنفسه مرة .. وقذفت به فى الماء مرة اخرى .. فاقسم أن ينتقم ..
فنظر العمدة الى جولى .. وقال
ـ يزعم بيت انك ولدت هنا فى ليموين وأن أباك كان من البيض وأمك من الزنجيات .. فبللت شفتيها بطرف لسانها وقالت . ذلك صحيح
فتحرك القوم بقلق .. وصرخت ايلى
ـ يا للنذالة .. لقد خدعتنى هذه الزنجية القذرة الكاذبة وفجاة . احتبس صوتها كان يدا وضعت على فمها .. وحملها شولتزى الى الخارج . ثم أوصد الباب ..
فقال العمدة
ـ حسنا .. انني منصرف يامستر هوكس . ولكن دعنى أنبئك أن من الخير أن لاتقيم حفلة فى هذه البلدة . فستجد خواطر الاهلين مهتاجة لانك تقدم ممثلات يختلط فى عروقهن الدم الابيض والدم الاسود .. وقد يحدث مالا يسرك !..
وانصرف العمدة وهو شامخ بانفه معتد بسلطته .. وصمت القوم وكانما اصابتهم صدمة . وهمت مانوليا ان ترتمى فى أحضان جولى . لولا ان جذبتها يد بارتى .. وهمس اندى هوكس فى رفق :
ـ والان يا جولى ..
فاجابته فى هدوء : اننا سنرحل .
ونهضت جولى الى الصناديق والادراج تفتحها وتخرج ما تحتويه من ثيابها .

واقترب ستيف من اندي وقال فى صوت منخفض :
ـ اسمح لنا بالبقاء يا كابتن حتى بلدة اكسينا .. اسمح لنا بالله عليك . ولا تدعنا نهبط فى هذه البلدة
فصاح اندى باعلى صوته :
ـ سترافقاننا حتى اكسينا . ومن لا يروقه هذا من من افراد الفرقة . فليرحل منذ اللحظة .. سنبحر الان . فنصل الى اكسينا حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر . فاذا شئتما ان تبقيا الليلة على ظهر السفينة ريثما يحين الصباح . فانى ارحب ببقائكما .. اننى سيد هذه السفينة وكلمتى هى النافذة فيمن عليها . فمن لا يرضى فعليه ان يغادرها ..
قال ذلك وهو يرمق ايلى بنظرة استنكار .
وبلغا اكسينا فى عصر ذلك اليوم . فابى ستيف وجوليا الا الرحيل .. ووقف اندى يودعهما فى تاثر وانفعال :
واذ همت جولى بمغادرة المركب تلفتت خلفها كما لو كانت تبحث عن شخص فقدته .. وادرك اندى انها تبحث عن مانوليا وعن زوجته فقال فى لهجة المعتذر :
ـ انك تعرفين يا جولى انها لا تبغى الاساءة اليك .. ولكنها كتمت عن مانوليا موعد رحيلك .. ان للنساء اطوار عجيبة . ولكنها لا تريد الاساءة اليك .
وانطلقت جولى وهى تحمل حقيبتين . بينما حمل ستيف القسط الاوفر من متاعهما ..
وفجاة . انبعثت من حجرة مانوليا صرخات باكية .. ثم سمع وقع قدمين حافيتين على ارض الشرفة . وبدا شبح فتاة صغيرة فى رداء ابيض ممزق وقد بللت الدموع وجهها وبارتى تلاحقها حتى السلم . ثم تقف حائرة وقد يئست من اللحاق بها .
وابتسم اندى . وراح يتبع مانوليا بنظراته . وهى تعدو

الى الشاطىء باقصى ما فى وسعها من سرعة .. بينمامضت المرأة والرجل فى طريقهما .. وكانت صيحات مانوليــــا عالية واضحة :

ـ جولى .. جولى .. صبرا .. اريد ان اودعك .. يا جولى

وتلفتت المراة خلفها . ثم .. وبدافع من خوف غريب تولاها . اندفعت تعدو . كما لو كانت تفر من شىء لا تقوى على مواجهته .. وضاعفت مانوليا من سرعتها برهة . ثم وقفت ودفنت وجهها بين راحتيها . وانخرطت فى البكاء .. والتفتت المراة خلفها فراتها .. واسقطت الحقيبتين من يديها . وعادت ادراجها باسطة ذراعيها لها .. حتى اذا وصلت الى حيث كانت الطفلة جثت امامها على الطريق الموحلة واحتوتها فى احضانها .

الفصل الثامن

عندما بلغت مانوليا الخامسة عشرة كانت تبــدو كطفلة سبق جسمها سنها فى النمو .. عينان واسعتان فى وجــه صغير بديع .. وساقان طويلتان ترفعانهـــا فوق مســـتوى لداتها .

كان ثمة سباق مستمر بين ساقيها وبين اطراف ثيابها فكانت بارتى تطيل لها من اطراف الثياب دائما ..

ولما بلغت السادسة عشرة . هبت بقية اعضائها تلاحق الساقين فى النمو . واكتمل جسمها وبين يوم وليلة ــ كما فى القصص الخرافية ــ تجاوزت مرحلة الحداثة . لتبدو كمخلوق رشيق كامرأة صغيرة عريضة الجبهة . واســعة الفم . كبيرة العينين متألقتهما ذات صوت عذب

وكانت السنين التى قضتها على ظهر المركب قد بسطت امام عينيها ستارا حمل من رسوم الحياة والوانها ما لم تره

فتاة فى مثل سنها ــ حياة متغيرة . فيها فوضى . وفيها لهو . ولكنها هادئة . يشوبها الامن والصفاء . حياة رات فيها الانهار على تباين طبيعتها .. والمدن القائمة على ضفافها .. واهلها على اختلاف طبقاتهم .. والزنوج يكدحون فى الحقول فلا يرفه عنهم سوى تلك الاغنيات الساذجة . ذات الالحان الفطرية التى انطبعت فى ذهن الفتاة كلماتها . وظلت تتردد فى اذنيها اصداء انغامها فى رنين متواصل ..

ولكن بارتى لم تكن قد رضيت كل الرضى عن هذه الحياة .. كانت ما تزال تفكر فى تثقيف ابنتها . بل . وقد فكرت فى بعض الاحايين ــ فى ان تغادر السفينة لتسهر على تربيتها او تزج بها فى احدى المدارس ذات الاقسام الداخلية .. وكثيرا ما قالت لاندى بحق :

ــ أى حياة هذه لابنتنا .. ما اعجب ان تحيا سيدة صغيرة مثلها على ظهر سفينة تنتقل بها من نهر الى نهر ولا تقع عيناها فوق سطحها الا على مهرجين او مقامرين او زنوج .. الم يئن لنا بعد ان نفكر فى مستقبلها .

فيجيبها اندى مطمئنا : ان المستقبل كفيل بان يرعى نفسه دون مساعدتنا .

ولم يكن ثمة مناص من ان تجد مانوليا نفسها منساقة دون وعى الى خشبة مسرح « زهرة القطن » ..

فقد رات نفسها فجاة تمثل الادوار النسائية الاولى فى مسرحيات الفرقة . اثر انفصال ايلى عنها بغتة . ريثما تحصل الفرقة على ممثلة غيرها .. ثم لم تلبث ان اصبحت هى ممثلة الفرقة الاولى وكان عجيبا ان تندمج فى هذا المركز الجديد . وان تبرز مواهب فذة كانت خافية وان افتقرت الى تلك الروح المستهترة العابثة التى عرفت عن الممثلات.

حدث كل ذلك . دون توقع وعلى غير انتظار . فقد هجرت ايلى شولتزى المسرح . لتفر مع مقامر رشيق من

شباب بلدة موبيل . زين لها استغلال مواهبها فى احد المسارح البرية . وراح يغريها ويستهويها حتى اقنعها
وكان لها عشاق كثيرون من طلاب الهوى وابناء اللهو والعبث . ولكن احدا لم يشك فى انها انما تبعت ذلك المقامر الرشيق ذى الشارب الانيق بعد ان تركت ورقة لشولتزى — كما تفعل البطلات اللاتى مثلت ادوارهن — كتبتها بخط مرتعش عليل . تعلنه فيها بفرارها وتنصحه بالا يتبعها او يحاول استردادها . فقد وعدت بان توضع على راس فرقة تعمل على حسابها الخاص . حيث تقوم بادوار جولييت وغادة الكاميليا والغانيات اللائى خلدتهن القصص .. كما وعدها عشيقها ..
ومع ذلك . فهى ترجو ان يعتبرها دائما .. زوجته الوفية المخلصة ..
كانت صدمة ساحقة لشولتزى .. ولكنه مع ذلك لم يفكر فى غير سعادتها .. وكان يئن ويتمتم :
— انها لا تستطيع المضى دون أن أكون الى جوارها .. جولييت .. كيف تمنى النفس بهذا الدور .. وهى التى بذلت اعظم الجهد لتقوم بدور فى مسرحية هزيلة .. ولكنها رغم هذا كله . سوف تعود
فتساله بارتى : وهل تقبلها اذا عادت ؟
فيجيبها فى بساطة . بكل تاكيد .. انها لا تعرف كيف تؤدى اتفه الاعمال دون معونتى .. انها ما تزال طفلة .. انها تحتاج الى فى كل وقت .. وسوف تعود .
وارسل الكابتن اندى الى شيكاغو فى البحث عن ممثلة جديدة .. والى أن تصل هذه خطت مانوليا الى المسرح فوق جثمان بارتى التى أغمى عليها من فرط الحنق والغضب والعار الذى كانت تتخيله .. فانها ما كادت تعلن فى بساطة انها ستقوم بادوار ايلى حيث لا تعطل عمل الفرقة حتى

اثارت بارتي زوبعة هوجاء . حملت فى نهايتها الى فراشها حتى ظلت الى قبيل رفع الستار بدقائق .. وكانت الفرقة فى ذلك المساء . تعتزم عرض مسرحية « عروس القس » .. وظل افرادها حتى اخر حياتهم يذكرون ما حدث فى تلك الليلة .. فقد قاموا فى النهار بتجربتين كانت مانوليا خلالهما اكثر سيطرة على اعصابها . بينما راح اندى يذرع الارض بين المسرح ومخدع زوجته .

ولم تشعر مانوليا بالارتباك الا عندما وقفت على خشبة المسرح .. وخيل اليها أن كل ما حفظته قد تلاشى من ذاكرتها حتى اضطر شولتزى ان يلقنها الحديث عبارة بعد اخرى فى صوت خافت لاهث .. بيد انها لم تلبث أن اندمجت فى دورها . وتلاقى مجهودها مع مجهود افراد الفرقة فاذا هم يسيطرون على النظارة كما لم يسيطروا من قبل واذا هم يبعثون فيهم مختلف الاحاسيس فرحة وارتياح حين اختفى الزوج الذى اضطرت الفتاة الى اتخاذه مجبرة . وشاع نبا موته دهشة دوجوم حين ظهر فجاة فى الليلة التى كانت تتاهب فيها للتزوج من القس الذى احبته اثناء عملها كمدرسة بعد عامين من اختفاء الزوج .. ازدراء ومقت حين عرض الزوج على زوجته السابقة ان تنزل له عن الف دولار ليختفى مرة ثانية عن مسرح حياتها .

— لا تزعمين أن ليس لديك هذا المبلغ .. اين ما اقتصدت من نقود خلال الاعوام الماضية .

— اقسم اننى لم املك يوما الف دولار .

ويمسك الزوج بيدها فى قسوة .. ويجرها على ارض الحجرة .. وترتفع صرخاتها فيضطر الى كتم انفاسها .. وفى غمرة الرغبة الطاغية على افراد الفرقة فى مساعدة مانوليا على البروز فى دورها . تناسوا انهم ممثلين .وتجلت الوحشية والعنف على حقيقتها فى حركات فرانك الذى كان

يقوم بدور الزوج . فلم ينته الا على شتمة انطلقت من احد المتفرجين . فى أحدى المقصورات اليسارية .. فالتفت نحوه فاذا به يراه منحنيا على حافة المقصورة . وفى يده مسدس مصوب اليه ..

كان الرجل ساذجا لم ير قبلا مسرحية تمثل أمامه . فخيل اليه انه يرى حقيقة ملموسة واطلق فرانك يد مانوليا وانحسرت اسارير الغيظ والعنف عن وجهه . لتشرق ملامحه بالرقة والدعة والحب .. وغمز بعينه لمانوليا اذ راها تفغر فمها فى دهشة . ثم قال وقد اسعفته قريحته بما ينقذ الموقف :

ـ حسنا .. اذا كنت حقا تحبين القس وترين ان فى زواجك منه سعادة لك . فليس من حقى ان اقف فى سبيلك

وفى حركة رشيقة . وثب خلف المسرح .. اجتنابا للماساة التى اوشكت على الوقوع .

وهبط الستار .. ثم ظهر شولتزى ليقول للجمهور ان ممثل دور الزوج قد اصيب بمرض فجائى يمنعه من المضى فى القيام بدوره . وان الفرقة قد رات ان تعوضهم عن بقية المسرحية ببعض الاستعراضات والمقطوعات الغنائية . والالحان الموسيقية ..

ومنذ تلك الليلة . توطدت قدما مانوليا على خشبة المسرح .. واحتلت مركز الممثلة الاولى فى الفرقة .

واحبت هذه الحياة .. ولم تدخر جهدا فى اتقان ادوارها .. وراحت تبذل قصارى وسعها لتنتزع صيحات الاعجاب . والتصفيق . من رواد المسرح العائم ..

ولكن عينى مسز هوكس كانتا ترعيانها عن كثب . فلم تغفل عما بدا فى حركات فرانك بعد اليوم الاول . من عاطفة بدات شعلتها تذكو فى اعماقه .. ولم يغب عنها ان ذلك الشاب قد وقع فى حب مانوليا .. ولم تفتها انه راح يتبعها

اينما ذهبت . كحمل وديع يتبع راعيه .. وما كانتمانوليا او واندها ليعيران عاطفة الشاب اى اهتمام .

وقالت بارتى لزوجهـــا ذات يوم : ترى هل أنت عــلى استعداد لان توقف هذا الشاب عند حده ام اتولى اناهذه المهمة .

ـ بل دعيه لى . وانتظرى حتى نبلغ نيو اورليانس .. فلاذا لم يكن بد من فصله . وجدنا هناك من يحل محله ..

ولكن « زهرة القطن » لم تكد تبلغ نيو اورليانز . حتى تلقى الكابتن اندى صدمة اطارت صوابه .. فقد تسـلم شولتزى رسالة عندما رست السفينة فى الميناء ما أنتلاها حتى هرع الى اندى قائلا :

ـ ساضطر أن اغادركم يا كابتن .. انها فى حاجة الى .

فهتف فى دهشة :

ـ تغادرنا .. ومن تكون تلك الـ .. هى

ـ انها فى مصحة « ليتل روك » وقد اجريت لها جراحة .. وهجرها ذلك الوغد وهى لا تملك سنتا واحدا ..

فقال الكابتن : ولكنك لا تستطيع ان تتخلى عنى هكذا يا شولتزى ..

ـ اننى مضطر .. فى وسع فرانك ان يقوم بالادوارالاولى ريثما توفق الى بديل عنى او ريثما اعود . وفى وسع دوك أن يقوم بادوار فرنك . بينما يتولى مينز ادوار دوك ..

وصاحت بارتى فى جزع :

ـ محال ان يظل فرانك على ظهر السفينة .. اتسـمع يا هركس

ـ ومن قال انه باق .. انه لا يصلح للادوار الاولى .. انك لست جديدا على الوسط المسرحى يا شـولتزى . وانت تعلم أن ليس من العدل فى شىء أن تتخلى عنى فجاة قبل ان اتخذ للامر اهبتى ..

ـ لا اجهل ذلك . وما كنت لاقدم على هـذا التصرف لو أن الامر يختص بى .. ولكنه يختص بها .. لقد كتبت لها عندما هجرتني ان تتصل بى كلما وجدت نفسها في حاجة الى . وها هى ذى قـد فعلت .. وها انذا منطلق اليها .

ـ وما ذنبنا نحن حتى تتركنا هكذا فجاة . كما تركتنا اياى من قبل .

فعاد شولتزى يقول :

ـ ولكنني اخبرتكما ان الامر لا يتعلق بى .. انهامريضة وفى وسعكما ان تجدا فى نيو اورليانز من يخلفنى .. بل من هو خير منى .. لقد رايت على رصيف الميناء حين هبطت هذا الصباح . شابا يتسكع . فلما علم اننى ممثل قال لى انه قد ظهر على المسرح من قبل . وان حياة المسرح هى احب الوان الحياة اليه ..

فصاحت بارتى متهكمة :

ـ حقا .. لعله يظن ان مسرحنا ملجا ياوى اليه كل عاطل

فاوما شولتزى باصبعه نحو شاب كان يقف مستندا الى بعض البضائع الملقاة على رصيف الميناء

وتامل اندى الشاب ولم يلبث ان قال .

ـ يخيل الى انه مخلوق محترم .

فتناولت بارتى منظارا وسددته نحو الشاب ثم قالت :

ـ لا اعتقد ان اى سيد محترم ينتعل حذاء باليا .. ثم اننى لا احب مظهره او نظراته .. لكننا مضطرون ان نعرض عليه العمل مادام شولتزى يصر على الرحيل .

الفصل التاسع

وهكذا وقعت عينا مانوليا لاول مرة على جايلورد وافنل الشاب الرشيق الذى اخفت اناقة ثيابه ما كانت عليه هذه

الثياب من بلى وقدم .

ولم يكن جايلورد رافنل حين وقف على رصيف ميناء نيو اورليانس فى ذلك اليوم يفكر فقط فيما اصاب ثيابه من بلى . وجيبه من اجداب .. وانما كان كذلك مشغول البال بما حدث عندما زار مدير بوليس المدينة قبيل ذلك بقليل .. فقد اراد مدير البوليس ان يطهر المدينة من المقامرين المحترفين .. فاصدر اوامره بان لا يسمح لاحدهم بالمكوث فى المدينة اكثر من اربع وعشرين ساعة بعد هبوطهم اليها .

وغادر اندى السفينة وقصد لفوره الى الشاب وبادره قائلا :

ــ قيل لى انك كنت ممثلا ..

فرفع رافنل حاجبه الايمن والقى على محدثه نظرة ارستقراطية . ثم اجابه فى كبرياء :

ــ انني جايلورد رافنل . من اسرة رافنل التى كانت تسود تينيسى .. معذرة فانني لم أعرف اسمك ..

ــ انا اندى هوكس ربان ومدير وصاحب مسرح زهرة القطن ..

فسمح رافنل فى غطرسة لعينيه ان تتجها صوب السفينة الراسية .. وشعر الكابتن اندى فجاة بالاسف لانه غفل عما اصاب طلاءها بفعل الريح والامواج .. وامتدت يداه الى شعر فوديه فى حيرة وقلق وقال :

ــ الواقع اننا فقدنا ممثلنا الاول الذى كان يتقاضى خمسة عشر دولارا فى الاسبوع فضلا عن الاكل والماوى .. فهل لك رغبة فى ان تطوف بمختلف البلاد .

ــ هل تعنى انك تعرض على مركزه .

ــ انك لن تتحمل مسئولية ما .. وستجد فرصة لترى الحياة على حقيقتها ..

فاجابه فى صوت من لايبالى : اوه . لقد رايتها ..
وفجاة . لاح له على سطح « زهرة القطن » شبح .. طويل .. رشيق ..
وكانت مانوليا فى تلك اللحظة قد غادرت مخدعها. وقصدت الى الشرفة الى حيث كانت امها تتاهب لهبوط الى الشاطىء وكان فى النية ان ترافق ابويها الى جونة فى المدينة التى طالما احبتها .. ثم الى عشاء انيق فى « مطعم انطوان » كما وعدها ابوها .. ثم الى سهرة فى المسرح الفرنسى ..
ووقفت مانوليا على ظهر المركب بقامتها الفارعة فبحثت عن ابيها على رصيف الميناء حتى اذا وقعت عليه عيناها . رفعت يدها تلوح له .. ولمحها اندى فاجابها ملوحا بيده
وساله جايلورد رافنل : اهذه احدى ممثلات فرقتكم .
فاشرق وجه اندى وقال : انها ابنتى .. مانوليا .. انها الممثلة الاولى فى الفرقة .. والان ايها الشاب .. دعنى اذكر اسمك .. اه والان يا مستر رافنل . هل انت سريع البديهة قوى الذاكرة .. ان هذا كل ما اطلبه فى الممثل . لاننا سنبحر الليلة الى « بابوتشى » حيث نعرض غدا مسرحية « العاصفة وضوء الشمس » فترى هل تستطيع حفظ دورك .
ــ بسرعة البرق .. وعن ظهر قلب ..
وبعد خمس دقائق . كان ينحنى على يد مانوليا يقبلها وهو لا يدرى العن حظه لان حذاءه الممزق اخجله امامها .. ام يحمد هذا الحظ لانه جمع بينه وبينها ..
وما كان فى الوسع تفادى العاطفة التى جمعت بين الاثنين بعد ذلك .. كانت امرا طبيعيا لا مناص منه رغم معارضة بارتى .. ورقابتها :
كان كل شىء يتامر على ضم كل منهما الى الاخر .. فقد كان جايلورد رافنل أنيقا رشيقا محوطا بالغموض :

ولم يكن رافنل حديث عهد بالنساء .. لقد اعتاد دائما ان يجد معجبات به .. وكان من ناحيته حاذقا . يجيدفن الغزل ولا يعجزه ان يمثل دور العاشق الموله الذى يترامى على اقدام فتاته .

ومع ذلك . فما كان ليدور بخلده ان يبقى طويلا بين افراد فرقة زهرة القطن .. او ان يقع فى هوى مانوليا بل وما كان ليصدق انه سيسعى الى الزواج منها ..

ولكن حدث هذا فعلا ..

لقد سحرته مانوليا منذ الوهلة الاولى .. واذكى نار الحب فى قلبه حرص بارتى على التفرقة بينهما والحرمان من طبيعته أن يزيد العاطفة اضطرابا ..

ولم يكن هذا الفتى الذى طال عهده بالتمثيل على مسرح الحياة واصطناع المواقف . ليعجز عن ان يمثل على مسرح « زهرة القطن » .. واستهواه هذا العمل الجديد . فوجد فيه لذة ومتعة .. وكان لوجوده امام مانوليا على خشبة المسرح اثره فى نفوس الجمهور .. فقد كان شابا ممتلئا حيوية وشبابا ذا مظهر ارستقراطى . وروح عاطفية .. وكانت مانوليا شابة رشيقة ذات انوثة ساحرة .. فكان ظهورها معا فى الادوار الغرامية اقرب الى الواقع فى نظر الجمهور ..

وادرك الجميع ان الفضل فيما تلاقى الفرقة من توفيق انما يعود الى الشابين .. وراح انـدى وبارتى ودوك يتشاورن فى الامن

لا مناص من العمل على الاحتفاظ برافنل .. انه حقا لا يلوح من طبقة الممثلين . وان مظهره ليتم عن كبرياء وارستقراطية .. ولكن فى وجوده كل الخير للفرقة ..

وقالت بارتى : ان من يسمعك يخيل اليه ان ضفاف النهر لم تحمل له مثيلا .. ان سر نجاحه انما يعود الى عينيه

التاقبتي النظرات . والى صوته العميق المرتجف بالعاطفة والى بشرته الناصعة الناعمة كبشرة المرأة .. ولكنى اراهن على انكما اذا سالتما عنه فى نيواورليانس . لسمعتما ما لا يخطر لكما ببال . انه يزعم انه منحدر من سلالة رافنــل التى كانت تسود تينيسي فى وقت ما ولكنى اؤكد لكما انه دعى ..

فقال اندى : انا لم ار قط من يمثل دور الفتى الاول مثله

وقال دوك : وانا لم اسمع من قبل ان لبشرة المثــل علاقة بفنه .

— ولكننى لا احتمل مرآه .. انه يتطلف ويبالغ فى الرقه والتظرف كانما يظن أن فى وسعه استمالة امراة فى مثــل سنى .. ثم .. اسمع يا هوكس وافهم ما اقول .. انه ينظر الى ابنتك .

— لو لم يفعل لــكان مغفلا

— اتعنى انك راض زواج ابنتك من مثل هذا الفار الحقير

— عجبا لك يا امراة .. الا يستطيع الرجل ان ينظر الى فتاة دون ان يقال انه سيتزوج منها ..

— حسنا . افعلا ما شئتما واستبقياه كما تريدان . ولكن اذكرا اننى كنت اول من حذركما من تلك الرقطــاء جولى . فاظهرت الايام صدق حدسى . انتظرا حتى نصل الى نيو اورليانس وساتحرى بنفسى .. وكذلك ســيفعل فرانك .

— وما شان فرانك بهذا .

ولكنها لم تجب . وتركتهما يشيعانها بنظرات الدهشة والعجب .

ولما عادت السفينة الى نيو اورليانس . غادرها رافنل ولكن لكى يعود اليها فى اخر النهار وقد اكتسى جديدا من قمة راسه الى اخمص قدميه بفضل ما كسب من اجر خلال

رحلته ..
ودهش رجل البوليس السرى الذى راقب الميناء . حين ابصر به وصاح :
ـ يا لله . هل سطوت على مصرف يا رافنل .
ولكن رافنل تحول اليه . وقال بلهجة الجد :
ـ أصغ الى .. ان « زهـرة الطن » لن تبحر قبـل التاسعة من صباح غد . فلا أود أن تضايقنى وليس لك ما تؤاخذنى عليه قبل الموعد .
ودهشت مسز هوكس حين رأته يصعد السفينة فى ابهته الجديدة .. ورأت الدهشة على فرانك .. وكان يتأهب للانصراف معها .. فسألها رافنل :
ـ هل ستمكث طويلا على البر
فسألته فى خشونة : ولم لا
ـ فقط وددت ان ادعوك والكابتن هوكس والانسةمانوليا لتناول العشاء معى ومرافقتى الى المسرح .
فاجابته فى اقتضاب : ربما لا اتمكن
ثم راحت تهبط الى الشاطئ وفرانك فى أثرها .. بينما سار رافنل الى نافذة التذاكر حيث كان الكابتن اندى غارقا بين الحسابات والنقود المكدسة امامـه على المنضـدة . ومانوليا الى جواره . تدق الارض بقدمها فى غضب الطفل المدلل وتصيح :
ـ أوه يا ابى .. لقد اشرفت الساعة على الرابعة ولمـا تنته .. اننا لن نعود الى نيو اورليانس قبل انقضاء عام وقد وعدتنى بنزهة .. وعشاء .. ومسرح .. فمتى تبر بوعدك .؟
ـ صبرا لحظة واحدة .. عجبـا لك يا نولى . لقـد اصبحت امرأة عنيدة سريعة الغضب كامك
ولاحت منه التفاتة فرأى رافنل واقفا فى ثوبه الانيق

الجديد
فارسل صفيرا خافتا ينم عن دهشته .. وتقدم رافنل فتناول يد مانوليا وقبلها .. وكممثلةعظيمة . وابنةصاحب المسرح الناجح ولم يكن ثمة عجب فى ان تجيب هذهالتحية بانحناءة بسيطة من راسها الصغيرة الرشيقة .. وهتف اندى وقد عاودته شكوكه فى انه اخطا حين ظن رافنل ممثلا عاطلا وهو من ابناء الطبقة الراقية :
ـ ويحك يا رافنل .. ما اظنك جئت تنذرنى بانك مفارقنا ..
ـ انما اقف امامك يا كابتن هوكس فى ملابسى العادية فليس ثمة ما يدعو الى التعجب .. هكذا أعتدت أن ابدو امام الناس . وإن كنت حين صادفتنى لاول مرة فى شيء من الضيق ..
ـ ومع ذلك فقد حان الوقت لاعرض عليك ان تظل معنا الى النهاية .. سارفع مرتبك الى عشرين ..
وهز رافنل راسه . فظنه يرفض . فتابع حديثه :
ـ اذن الى خمسة وعشرين .. الى ثلاثين .. هو ذا مرتب لم يحلم به اى ممثل على المسارح النهرية
ـ دع الحديث عن العمل الان يا كابتن . فانما جئت لأدعوك ومسز هوكس والانسة مانوليا لتناول العشاء معى ثم مرافقتى الى المسرح ..
فانقضت مانوليا على اندى واحاطت عنقه بذراعيها .. وتطلعت الى رافنل بعينيها الكبيرتين وهتفت ابى :
ولكن آندى تعود أن يفكر فى طباع يارتى قبل كل شيء فقال : ولكن .. امك
فتحولت مانوليا مغضبة وقد تندت عيناها بالدموع وصاحت : الم تعدنى ؟ .. انك لا تفكر فى مسرتى . وانما تولى السفينة والمال كل عنايتك .. الم اعمل لمعونتك ليلة

بعد ليلة . وعاما بعد عام .. لم لا تبر بوعدك
ـ اننى عند وعدى لك يا نولى . ولكن امك لم تعد بعد ودوك ما زال غائبا . فكيف نترك السفينة وحدها ؟ .مازال ثمة متسع من الوقت لنذهب الى المسرح . ولكنى اعتذر اليك لاننا سنضطر الى انلغىنزهتنا الى بحيرةبونتكارتريان
فهتف فى ياس .. وتولت عيناها نحو رافنل فى رجاء . كانما تستنجد به .. وقاوم رافنل رغبة جامحة فى ان يحتويها بين ذراعيه وقال فى تادب :
ـ اذا كانت لديك الثقة فى شخصى يا كابتن . فاسمح لى ان اقترح عليك أمرا .. اننى اعرف نيواروليانس حق المعرفة وانى لارى ان الانسة مانوليا تنحرق رغبةفى انزهة فيها .. ففى وسعى احضار مركبة تذهب بنا الى البحيرة ثم نعود اليك .. واذا شئت فلا باس من ان تصحبنا مسز مينز ..
فصاحتالجميلة الباكية : وافق يا ابى ..بالله.ارجوك
فعاد اندى يقول فى وهن : ولكن امك .. انا لا ادرى اين هى الان ؟ .
واطل من النافذة فى حيرة ثم استطرد : انا شخصيا لا ارى باسا .. حسنا . اذهبا معا . وسنلحق بكما فى مطعم انطوان فى الساعة السادسة والنصف .
وانطلقا من الحجرة وكلاهما يود لو ان له اجنحة يطير بها
ولم يشعر اندى بمرور الوقت وهو منهمك فى الحساب والاحصاء ولكنه انتبه اخيرا على يد تمسك بكتفه فى عنف وعلى صرخة مغضبة محنقة عرف فيها صوت بارتى فارتجف خوفا
كانت تصيح :
ـ فى شارع القناة .. الاثنان .. رايتهما بعينى
وتهالكت بارتى كانما توشك ان تفقد الوعى .. واقبل

فرانك وهو يلهث وقال يوضح الامر :
ـ لقد رأيتهما فى عربة منطلقة بهما . فتركتنى واسرعت تعدو وسط الشارع حتى ظن الناس انها اصيبت بلوثة .. فلما لم تستطع اللحاق بالعربة انقلبت عائدة الى السفينة وراحت بارتى تئن وتهتف . انه قاتل .. قاتل .
نفد صبر آندى فصاح بها : ماذا اصابك يا امرأة .. من القاتل ؟ .. فرانك . ومن القتيل
فانتصبت بارتى وهى ترتجف وصاحت : اسمع ايها الاحمق .. لقد استعلمت عن رافنل من مدير البوليس .. وعلمت منه انه .. قتل رجلا
ـ من ؟ .. مدير البوليس .. قتل رجلا ومن يكون الرجل
ـ اعنى .. رافنل .. رافنل قتل رجلا ..
وقفز اندى عن مقعده وصاح وهو يفكر فى مانوليا .. يا الهى .. متى .
ـ منذ عام . وفى هذه المدينة ذاتها ..
فتنهد اندى فى ارتياح وسالها : ولماذا لم يشنق ؟
ـ بل اطلقوا سراحه .. الامر واضح اذن .. لابد انهم تبينوا صدقه .. فماذا فى الامر ؟
ـ ماذا .. ان ابنتك تصحبه الان فى عربة تقطع بهما شوارع المدينة .. لقد رايتهما بعينى راسى . فوددت ان الحق بها لاجنبها الصدمة اذا كشفت امره .. يالله .. انها معه فى عربة .. كل هذا من جراء اهمالك .. ابنتك فى عربة مع قاتل .
فصاح فى غضب : وماذا فى ذلك يا امرأة ؟ لقد قتلت بنفسى رجلا عندما كنت فى التاسعة عشرة .. وها قد انقضت خمس وعشرون سنة . وهانذا رجل محترم لا يضارعنى فى مكانتى رجل ممن يعملون على صفحات الانهار

ولاول مرة فى حياة بارتى .. اغمى عليها حقا .. من فرط الحنق والغيظ .

الفصل العاشر

لم يكن جايلورد رافنل ليبغى حب مانوليا . اويحلم يوما بالزواج . ذلك انه لم يصادف فى حياته فتاة كمانوليا

واذ أصرت بارتى فى ذلك اليوم على فصل هذا المقامر القاتل اذ .. ا! ..

كان حبه فى خطر ولكن القدر ساق الطمانينة على لسان اندى الذى شاء ان تكون له ارادة نافذة ولو لمرة واحدة . فصاح بها فى خزم :

ـ سيبقى رافنل .

وبقى رافنل .. وبقيت بارتى .. وبقى كل منهما يتربص بالاخر الفرص .

وراحت شهرة « زهرة القطن » تزداد ذيوعا وانتشارا . وتداولت الالسن الحديث عن الممثلين الشابين اللذين يقومان بالادوار الاولى فى مسرحياتها .. وهنا .. هنا على المسرح لم يكن فى وسع بارتى ان تفرض رقابتها وسلطانها . فكان قلبا الشابين وعيونهما . ولساناهما ينطقان بما هناك من وجد مكتوم .. وعاطفة ملتهبة مضطرمة .

وحدث مرة أن رست السفينة على « تنيسى » : فانتهز الفرصة واغرى مانوليا وآندى على أن يتسللا معه الى كنيسة القرية العتيقة . وهناك . الى جانب نسخة قديمة من الانجيل فى خزانة زجاجية . اراهما وثيقة تاريخية عتيقة . حرم فيها الجد الاكبر لاسرة رافنل ، ابنه جايلورد رافنل من ثروته .. وفى ابتسامة ساخرة ، راح يشرح لهما كيف أن جايلورد رافنل كان شابا عابثا متلافا . وكيف ان ابنه وحفيده وما تبعهما من سلالته نشأوا على غراره . حتى وصل النسب اليه ، فاذا هو لايضارع أبناء عمومته ثروة وغنى . وبينما انصق آندى وجهه بالخزانة الزجاجية

يقرأ ماجاء بالوثيقة . ادنت مانوليا رأسـها من رأس الفتى وهمست :

ـ يا حبيبى المسكين .!

واعتزم آندى ان يصحب بارتى الى هذه الكنيسة ليريها حقيقة نسب ممثلهما الاول وسخف ما يملأ رأسها من شكوك من أمره .

ولكن مسز هوكس أبت ان تقتنع . كانت تكافح وتناضل .. وكانت الغيرة تهرأ قلبها .. الغيرة من الشباب ومن الحب . فراحت خلال الاسبوع التالى تسكب بغضها فى اذنى مانوليا ، وتنفث سمومها فى نفسها .. انه مقامر .. مطارد من البوليس . قاتل ..ولكن حركة بسيطة من رافنل .. كانت كافية لان تطهر نفس مانوليا وقلبها من كل أثر لاقوال بارتى ..

كان الموقف لايطاق . ولكنه بعث فى نفس الفتى مطمحا جديدا ، فاذا هو يبذل جهده ليدخر من المال ماوسعه .

وقد اعتزم أن يتزوج من فتاته . وان يحملها بعيدا عن هذا الجو المقيت .. وفى ساعة من سويعات النشوة .. افضى الى مانوليا بمقترحه وخطته . وفى ساعة من ساعات العذاب العاطفية وقد تولى كلا منهما الاسى لما يلقى من قيود تحول بينه وبين صاحبه استطاع أن يحصل منها على وعد بان تتسلل معه الى البر اذا مارست السفينة بمرفا متروبوليس فيعقدا زواجهما خفية فى كنيستها ، ثم يعودان وقد حطما كل قيد وغل .

ولم تذكر مانوليا فيما توالى بعد ذلك من أعوام ، شيئا مما جرى فى اليوم التالى عندما رست السفينة فى ميتروبوليس .. كل ما اوعته ذاكرتها انها هبطت الى البر مع مسز مينز .. ثم تسللت وسط زحام صادفهما ؛ فاذا بمسز مينز تفقد كل اثر لها . فى الوقت الذى يممت فيه

هى شطر كنيسة البلدة . حيث كان رافنل فى انتظارها . .
وكلاهما فى ملابس بسيطة لاتلفت اليهما الانظار .

وفى الكنيسة الصغيرة . وأمام القس العجوز . ركعا يرددان ما يمليه عليهما . . وبيد مرتعشة خلع رافنل خاتمه ذا الماسة البراقة . فوضعه حول أصبعها . ولما تبينت فيما بعد أنه أكثر اتساعا من الاصبع لجات الى خيط تلفه حول هذه الاصبع لتملأ الفراغ بينها وبين اطار الخاتم .

ثم تكرم القس الطيب وامرأته فدعواهما الى مائدتهما احتفالا بهذا القران . .

وهكذا ارتبطا بالرباط المقدس . . وعاشا . . كل للاخر مدى الحياة . . !

الفصل الحادى عشر

لم تكره كيم رافنل فى حياتها شيئا ، كما كرهت المسيسبى . . رغم أنها ولدت على سطحه . فى احدى ثوراته الهوجاء . . ورغم ماسمعته من أقاصيص فى حداثتها عن فيضانه . والزوابع التى تهب فى حوضه ، والجرائم التى ترتكب على ضفافه . . بل ورغم ما كانت تعلمه عن جدتها مسز هوكس ، من أنها ليست الا صورة مصغرة له . بقسوتها وحزمها واستبدادها . . لاسيما بعد أن مات زوجها وتولت هى ادارة السفينة والفرقة فى شدة ونظام ديكتاتورى جعلا لها شهرة فى طول الانهار وعرضها .

رغم كل ذلك كانت تكره النهر الطاغى ؛ ولكنها تحب قصصه وما اقترن بتاريخه من مغامرات وأحداث .

وكثيرا ما قالت لامها : الا حدثتينى عن ذلك العمر الذى قضيته على المسيسبى . . على مسرح زهرة القطن

– ولكنك سمعت هذا الحديث ألف مرة .

– ومع ذلك فانا أستعذب الانصات اليك وانت تتكلمين .

- أن اباك يكره سيرة النهر والسفينة العائمة .
- ولم ..؟
- لانه لم يكن سعيدا هناك .. ولم أكن انا أيضا سعيدة . بعد موت جدك .

وكانت كيم تعرف كل ذلك .. كما تعرف أن أمها تكن عاطفة مشبوبة . وولعا بالانهاروبحياتهاومياهها وفيضاناتها و .. وكل ما يتصل بها .

كل ماتعيه كيم عن الانهار ، لا يزيد عن ذكريات باهتة اختلط بعضها ببعض .. كانت تذكر أمها وهى تجس على سطح السفينة أثناء النهار تحيك الثياب التى تظهر بها فى أدوارها . وجدتها التى كانت دائمة الصخب والسخط حتى تخيلت فى طفولتها ، ان كل الجدات صاخبات ساخطات بينما كانت توقن ان كل الاجداد لطاف رحيمون .

كم كان جدها يضحك حين تناديه بلقبه « كابتن » فى لثغة الطفولة التى تفقد التاء فى طياتها فينطلق اللقب وكانه « كابن » فتضحك لضحكه ، وترمقه من تحت أهدابها الطويلة .. كانت لها عينان كعينى أمها .. واسعتان عميقتان . واهداب مرهفة كانها النصال او السهام . وفم واسع كفم امها .. اما بقية قسماتها فقداستعارتهامن ابيها

ولعل أبرز الذكريات التى علقت بذهنها من السنوات التى عاشتها مع والديها على سطح السفينة ، كانت ذكرى صباح ساده الهرج والمرج والاضطراب .. كانت اذ ذاك فى الثالثة من عمرها .. وكانت فى فراشها الصغير فى مخدع والديها ملتفة من راسها الى أخمص قدميها فى غطاء ثقيل من الصوف .. وفجاة سمعت صوت زوبعة قوية .. ثم صرخات ، ثم صيحات . ثم رنين اجراس قوية .. وفجاة ايضا انتزعتها امها من مرقدها . وهربت بها الى سطح السفينة وهى حائرة مغيظة اذ حرمت من النوم الهنيء

وراحة الفراش .. وما كانت لتفهم شيئا مما يجرى .، ولكنها سمعت جدها يصيح فى لهجة الامر ، ثم .. سمعته يصرخ .. وصمت بعد ذلك .. واحست بشىء يقع .. بجسم يسقط فى الماء ، ثم يخفيه الضباب عن اعين أهل المركب . ويطويه التيار .. وألقيت كيم على فراشها ثانية وكانها حزمة من الثياب . ثم ظلت وحيدة .. وبكت من فرط خوفها وحيرتها . ولكنها سرعان ما استسلمت للنوم ثانية ..

وعندما استيقظت . كانت امها تحنو عليها . وقد تراءت لها مخيفة اذ كانت عيناها مفتوحتين الى أقصى اتساعهما ، وكان وجهها مبللا بالدموع .. وصرخت كيم ذعرا . وبكت .. فانتزعتها من الفراش . واحتضنتها وهى تهمس :

ـ انه النهر .. النهر !.. النهر !..

فان الموت لم يلبث أن وافى آندى . عاجلا . وعلى غير انتظار

فقد هاج النهر العاتى ذات صباح .. وثارت الانواء فراحت تعبث بالسفينة فى قسوة وعنف ، وكما هى عادة كل ربان . راح آندى يجرى على سطح السفينة صارخا يلقى باوامره فى رجاله .. وقد تولاه ما يشبه الغيبوبة فكان لايشعر بشىء سوى الخطر المحدق بسفينته . كانما لادنيا له غيرها وانه كذلك . اذا بقدمه تزل . واذا به يهوى الى النهر . فارتفعت صرخته فوق كل صوت آخر . وحملته الامواج المغضبة الى أعلى . ثم الى اسفل . ثم اخفاه الضباب عن عيون رجاله . وجرفه التيار الكاسر . حتى اذا أمن ايدى المنقذين راح يهبط به . شيئا فشيئا . ويشدد عليه الخناق حتى لايفلته . الى ان أودعه طبقات الطمى الراقدة فى أعماقه ..

الفصل الثانى عشر

صاحت بارتينيا آن هوكس . وقد خلعت عليها ملابس الحداد كآبة . فبدت كشبح رهيب :

ـ طيبة !. لا ياسيدتى لن أقبل هذه المشورة .. واذا كنت تظنين وزوجك أن فى وسعكما التخلص منى بهـذه الوسـيلة ...

ـ ولكننا لانسعى الى التخلص منك ياأماه . كيف تفكرين فى ذلك ؟.. كل ماهناك انك كنت دائما تعلنين كراهيتك للسفينة والحياة عليها . فرأيت انك الان . وقد مات ابى . لم تعد بك حاجة الى البقاء فى جو لاترتاحين اليه ، بينما فى وسعك أن تعودى الى الحياة فى طيبة .

ـ صحيح !. وماذا يكون مصير « زهرة القطن »ياماجى هوكس ..؟

ـ لست أدرى . هذا مايجب أن نبحثه فى روية .

كانت السفينة قد أصيبت بصدع لايستهان به بعد تلك الانواء العنيفة . ولقد شقيت مانوليا بذلك . اذ احست كان قلبها أصيب هو الاخر بجرح بليغ .. وشعرت فجاة بذعر يتولاها من النهر الغادر . وخيل اليها كلما حدقت فى مياهه الصفراء انه يحاول ان يسلبهاوعيها وان يخضعها لسلطانه وان يجتذبها بدورها الى أعماقه .

فراحت تفكر فى الفرار منه مع زوجها وطفلتها . رغم انها كانت تدرك انها لن تسعد بالحياةبعيدا عنه . كانت تود لو تهرب . وتود لو تبقى . كان فى البعد عنه نجاتها وطمانينتها . ولكنه كان يضم فى أعماقه الكائنين آندى ، فكيف تهجر اباها ؟. لقد كشف لها النهر عن المعميات الثلاث التى كانت تبدو لها غامضة . عن الحب . وعن الخلق . وعن الموت ، كان كل ماعرفته من هناء او شقاء ، من هدوء أو اضطراب

من راحة أو جزع . مرتبط بالأنهار التى عاشت على صفحاتها ، كانت شواطئها تحد عالمها الذى خلقت لتحيا فيه

وقالت مسز هوكس : حسنا . ألسنا نبحثه الان ؟..

ــ انما اعنى ان اصلاح السفينة سيقتضينا نفقات باهظة ، كما انها ستتعطل عن العمل شهرا أو أكثر من شهور الموسم .. فهل ترين أن فى وسعنا أن ندير شؤونها كما كانت تدار فى وجود ابى ؟

ــ يلوح لى انك بحثت الامر مع رافنل . الا اسمعى ماسوف نفعله ، سنديرها بانفسنا . أو ان شئت .. ساديرها بنفسى .

ــ ولكن يا أماه !.

ــ ان أباك لم يترك وصية ، وانا ارملته . فلا تتوقعى ان اطرح مشروعا قضى فى تاسيسه ورفع بنيانه معظم حياته ، ان السفينة مؤمن عليها .وستدفع الشركة نفقات اصلاحها . لقد تسلمت قيمة التامين على حياة ابيك .. وساعطيك نصيبك منها . وستظل السفينة كما كانت فى حياته . وستظلين تقومين وزوجك بالادوار الاولى . وكيم

فصاحت مانوليا ، كما صاحت بارتى قبلها منذ سنوات لا .. دعك من كيم .

وتولى ارملة هوكس نشاط غريب ، لقد أصبح لها الامر كله . وغدت المسيطرة لاشريك لها .

وأحست مانوليا بوطاة السلطان الجديد الذى انتقل الى امها ، وبما سيكون من رغبتها فى أن تستبد بكل شيء .. حتى بحياتها . حياة زوجها وابنتها . وكانت تعرف أن هذا لن يكون فقد بدا التمرد من زوجها منذ اللحظة الاولى . لولا توسلاتها وتضرعاتها .

ولكن .. لم يمض أسبوع على عودة السفينة الى العمل ، حتى انبعثت شرارة التمرد من غيره . فان ويندى

ـ ماسك الدفة ـ لم يكد يرى الارملة العجوز تمسك زمام الامور ، حتى غادر السفينة غير آسف
وتبعه فرانك . ورانف . من ممثلى الفرقة
ولـكن بارتى قابلت كل هذه الصدمات بجلد وتحدرائعين .. بل لقد بدت أعظم من كل عقبة !.
ثم جاء اليوم الذى طغت فيه ثورة جايلورد رافنل .. فقال لزوجته :
ـ أحد اثنين . أنا . أو أمك ، فمع من تكونين .؟
واختارت مانوليا ان تكون مع زوجها . فثـارت ثائـرة بارتى .. وسألتها والغضب يكاد يسلبها وعيها : الى اين تذهبين وزوجك ؟ لا .. اننى أحذرك .. ولماذا ترحلان ؟
ـ كيم .. المدرسة
ـ هراء ..!
وجمعت مانوليا أطراف شجاعتها وقالت : اننا . اننى. ان جاى غير سعيد بالحياة متنقلا بين الانهار ..
ـ ولكنكما ستكونان أكثر شقاء قبل أن يطول بكما أمد الحياة على البر .. اننى لا اخطىء ، لاولست اغالى .والى أين تذهبان ؟.. الى شيكاغو ؟! ماذا تفعـلان هناك .. ستعانيان قسوة الجوع . وما هو اشد وطاة من الجوع . اننى انذرك . ستندمين ، وستودين لو تعودين ثانية ..
وفرغ صبر مانوليا . وانفجرت الثورة التى كانت تكتمها طيلة السنين الماضية ، الثورة ضـد هذه الارادة الحديدية التى تتحكم فى حياتها . فصاحت :
ـ وانى لك أن تعرفى ؟. وعلى فرض انك مصيبة ،فماذا فى ذلك ؟. انك تودين دائما أن تصورى حياة الناس ،لقد عارضت ابى حين أراد أن يشترى (زهرة القطن) الاولى وجعلت حياته جحيما لايطـاق ، وها أنت اليوم تابين أن تنفضى يديك منها . ولقد اقمت الدنيا واقعدتها حين اقدمت

على التمثيل ، وحاولت أن تمنعى زواجى من جاى . وودت لو اننى لم أنجب كيم . ولكنك لاتستطيعين انتحكم فى مصائر الناس . ان الله يتركهم احرارا يسلكون مايشاؤون من سبل الحياة ، ويسقطون وتدق أعناقهم لكى يروا بانفسهم اخطاءهم

ومع ذلك فقد كانت بارتى تحس بارتيــاح فى أعماقها لرحيل رافنل ومانوليا . ارتياح كانت تنكره على نفسهـــا وتتجاهله ، ولقد استطاعت أن تتحكم فى السفينة بعــد رحيلهما . كانت مقــدرتها على الادارة ومواهبها وحزمهـــا وعزمها تزحف من الظلام الذى تعيش فيه فى أطواء النسيان والاهمال . لتظهر فى وضح النهار . ففصلت ممثلين والحقت بالفرقة غيرهم . وتخلصت من بحارة . واستخدمت سواهم وراحت تضــع الخطط والمشروعات . وتصــدر الاوامــر والتعليمات . وسار العمل على (زهرة القطن) كمـــا لم يسر فى أى يوم من الايام الماضية .

وكان هم مسز هوكس الاول عندما سلمت بحق ابنتها فى أن ترحل مع زوجها، أن تحملها على ترك نصيبها فيما خلفه أبوها من ثورة . لتدفعه اليها فيما بعد على فترات منتظمة، فلقد كانت حريصة . وقد درست نفسية رافنل وعرفت طباعه . وكانت تحب ابنتها . وتود ان تصون مصالحها. ولكن مانوليا كانت منساقة لرأى رافنل . ففضلت أن تبيع نصيبها فى السفينة .

صاحت مسز هوكس : اذن . فاياك لاتأتين الى ذليلة عندما يضيع آخر درهم وتصبحين وطفلتك بلا مال . ان هذه هى النهاية المنتظرة ، فاذكرى كلامى هذا . سيسعدنى طبعا أن تعودى وكيم . أما هو . فــلا .. وخير له اذا ضاع آخر درهم من النقود ان لا يفكر فى الالتجاء الى .

ووقفت المرأتان وجهــا لوجــه لا كأم وابنتهــا ، وانما كغريمتين تتصارعان ..

وصاحت مانوليا : لن الجالنيك قط . ولومت وكيم جوعا
ـ هنك ما هو أسوا من الموت جوعا ، وسوف تنجاين الى .. أقسم انك ستفعلين .
ـ محل .. ابدا !.

وسكن مانوليا كانت تحس فى أعماقها بخوف لفراقها حياة الانهار .. الحياة التى اعتادتها وألفتها .. والبلاد التى طللا هبطت فيها وجالت فى أنحائها .

كانت مشفقة من الحياة الاخرى التى ستحياها مع زوجها . وىكن الحب الطاغى كان لايلبث أن يمحو شكوكها ومخاوفها . والحنين الملح الى الحرية .. والى الخلاص من رقابة امها وتعنتها واستبدادها كل ذلك كان لا يلبث ان يبعث فى نفسها الرجاء والامل .

واستعد الثلاثة للرحيل .. رافنل وهو هادىء النفس. جامد العاطفة . ومانوليا وهى شاحبة الوجه . واسعة العينين .. وكيم . وهى تلوح بيديها الصغيرتين مودعة جدتها

وهبطوا الى البر .. عبروا الجسر القائم .. وتحولت مانوليا لتلقى على السفينة نظرة أخيرة .. بينما وقفت بارتينيا هوكس منتصبة بين السماء والماء . فى ثوبها الاسود . وقامتها النحيلة . كشبح هائل .. وقد رفعت أحد ذراعيها مودعة . غير متألمة وغير مهزومة .. وغمغمت مانوليا والدموع تترقرق فى عينيها : انها كالنهر !.. انها الوحيدة التى تشبه المسيسبى !.

الفصل الثالث عشر

لم يكن عسيرا على اى انسان أن يعرف تقلبات الحظ مع رافنل . أو ان يخمن حالته المالية فى اى وقت من الاوقات . فقد كانت ثمة ثلاث ظواهر تنم عنها .. معطف مانوليا المصنوع من الفراء . الخاتم الماسى الذى أهداه

لها . وعصاه السوداء . فاذا ما غابت احداها . او كلها. كان ذلك دليلا على مايعانى من ضنك .

بيد أن ثمة ظواهر اخرى كانت تدل على افلاس رافنل. او تكشف عن بسطته . ابرزها اختيار المكان الذى يتناول فيه طعام افطاره .

وسرعان ما ألفت مانوليا هذه الحياة . كان العمر الذى قضته على ظهر السفينة قد أظهرها على شتى ألوان الحياة. وعودها ان تتقبل ما يصادفها من جديد دون تذمر .. فكانت ترضى فى حياتها بكل شيء .. وهى تشرئب بعنقها تحاول أن ترى مايخبئه الغد .

وبقى رافنل ما يزيد قليلا عن العام . فى انفاق ماورثته مانوليا من ثروة أبيها . أخذه ليضاعفه طبعا باستثماره فى أية ناحية من نواحى الاستثمار . فاذا به يفقده شيئا فشيئا . فى شيكاغو جنة المقامرين .

استقبلتهما شيكاغو بحياة كانت جديدة على مانوليا . حياة مترفة . حجرات مفروشة بائمن الرياش . مطاعم . مسارح . حلبات السباق . وتراءى لها رافنل أكثر رشاقة وفتنة . وانسياقا مع تيار المجتمع الراقى .. مما كان فى أى يوم مضى منذ عرفته ..

وعرفت مانوليا السهرات .والملابس الانيقة .والمساحيق والعطور الغالية . والمنافسة الحامية الوطيس بين نساء المجتمع لتبزِ كل منهن لداتها فى زينتهن وتجميلهن ومظاهرهن

وفى نهاية العام . كانت النقود قد نفدت ! . بدات نوبات من الوجوم والتفكير العميق تعترى رافنل . واخذ الضيق يؤثر على أعصابه ويخرجه أحيانا عن أطواره . ولكنه كان دائما حريصا على مانوليا . يعاملها فى رفق .. لانه يحبها من أعماق قلبه .

ولكن مانوليا أفادت من عامها أشياء كثيرة . رغم ضياع

النقود . وتعلمت كيف تغمض عينيها اذا ابصرت زوجها يبتسم لامرأة غيرها . وكيف تتغافل اذا خاف زوجها مقصورتهما فى المسرح بين الفصول . ليذهب الى المقصورة التى تحتها هيتى شيلزون وفتياتها .

وهيتى شيلزون .. امرأة جميلة معتدة بفتنتها وثروتها . بل هى قوة لايستهان بها فى مجتمع المدينة .. لانها صديقة لكبار رجالها .

ولقد قال لها جاى مرة : ان قصر هيتى شيلزون . ذلك القصر القائم فى ميشيجان . والذى يقبع عند مدخله تمثالا أسدين من الصخر الاصم . هذا القصر اشبه بمنتدى لاشهر رجال السياسة فى شيكاغو . ان أكثر من نصف الخطط السياسية التى تقرأين عنها فى الصحف توضع وترسم هناك . انها ساحرة يتدله الكل فى غرامها . وقد جمعت ثروة طائلة وابتاعت ارضا فى الريف لوالديها . كما ابتنت فى الريف بيتا ريفيا أنيقا . ثم انها تملك مكتبة من أعظم مكتبات الدولة ..

— ولكن يا جاى !..

— اتذكرين فرنسا !. أعنى أتذكرين النساء اللاتى قرات عنهن فى كتب التاريخ ؟. بمبادور . ومانتون . ودوبارى . الم يكن مشهورات . وكن يدرن دفة الشئون السياسية فى بلادهن ؟. انهن غانيات . هكذا تظنين أن ...

فكانت الدماء تتصاعد الى وجنتى مانوليا . دماء قانية . لم تكن بعد قد نسيت تعاليم أمها .

— ولكن المدينة باسرها تعرف امرها يا جايلورد .. انها لا تشبه دوبارى الا كما يشبه رجل الشارع ريشيليو . ان ثيابها لا تخفى ..

وكانما كان يلذ له ان يرقب الحيرة والحياء اللذين يستوليان عليها كلما أثار هذا الحديث . كان شىء من

الخوف يستولى عليها ، ولا يلبث شبح بارثينيا ان يحاول أن يظهر امام عينيها . ترى ماذا كانت تقول بارثى اذا رأت هذه المراة وفتياتها يتهادين امام عينها .

كان القسط الاوفر من النقود قد ضاع على مائدة الميسر ولكنهما لم يحسا بضياعه وما كان ليخطر لمانوليا أن دوامة القمار قد ابتلعته . فقد فوجئت بالنبا . حين اعلن رافنل اليها انه لا يملك مائة دولار . وتساءلت فى دهشة ولهفة . ولكنه لم يفسر لها الامر باكثر من انه سوء حظ فى القمار وسوق الاوراق المالية . ولاحظت أن العصا قد اختفت . ثم لحق بها الخاتم الماسى . وانتقلت الاسرة الصغيرة من المنزل الفخم الانيق . الى فندق صغير رخيص فى شارع أونتاريو . القريب من ميادين عمل جاراورد رافنل . الميادين التى تقوم فى جنباتها منتديات الميسر وصالاته .

الفصل الرابع عشر

وتعددت تنقلات الاسرة الصغيرة بين شارع شيرمان ، وشارع أونتاريو . فى صمت وسكون دون أن تسترعى الانتباه . فقد كانت هذه التنقلات مألوفة فى حياة المقامرين . ولم يكن عجيبا ان ترى المقامرين يوما فى ملابس تضارع ملابس أصحاب الملايين أو تفوقها . ثم تراه فى اليوم التالى فى ثياب باهتة ماحلة .

وتعودت مانوليا هذه الحياة غير المستقرة . وما كانت لتأبه اذا عاشت فى شارع شيرمان . او انتقلت الى شارع أونتاريو . طالما هى سعيدة هانئة بحب كيم وجاى .. وكانت كيم هى صديقتها الوحيدة فى هذه المدينة الواسعة الزاخرة .. فلم تسع الى اتخاذ صديقة أخرى .

كانت كيم هى كل سلواها ، وكانت مربيتها تحملها الى مخدع مانوليا فتظل هذه تداعبها طيلة الوقت . وتنصت

الى كلامها والى لتفتها المحببة . وتحدق فى عينيها الواسعتين .. الى أن يعود زوجها .

بيد ان المربية مالبثت أن اختفت مع غيرها من مظاهر الترف ، عندما عبث احظ .

❋ ❋ ❋

وكانت مسز هوكس ترسل خطابا كل شهر . لااكثر ولا اقل !. كانت المرأة افولاذيه الارادة تشق طريقها الى النجاح منتصرة .

كنت سيدة ذلك انعام اخاص الذى ضمته جوانب اسفينة . فهى حاكمته ، صاحبه السطة والسيطره فيه

كانت انباء توفيقها ، ونظامها ؛ والاداره افويه اتى تسير بها اسفينة . تنتشر فى احواض الانهر التى تمخر اسفينة عبابها . فتضفى عيها الاعجاب والتقدير .

وكانت بارتى لا تفتا تكرر فى خطاباتها ما سبق أن قالته لمانوليا : الله وحده يعم اى حياة تلك التى تحيينهامع هذا ازوج . ولكنك اخترت طريقك فامضى حتى النهايه . واطفة ؟ لست أدرى اية تربية تلك اتى توفرينها لها فى ابر .. اذكر أنك قلت مره انك سترسلينها الى احدى مدارس اراهبات وعمرى أننى لا افقه اى نوع من المدارس هذه ؟ ولكنها ارادتك فتحملى نتاجها . والمال ؟ ألم ينفقه كله بعد ، اننى لا اشك فى أنه قد بدد كل درهم من هذا المال الذى جمعه أبوك فى جهاده طيلة حياته

الفصل الخامس عشر

أخذت مشكلة تعليم كيم تزداد الحاحا على ذهن مانوليا يوما بعد يوم .. ولكنها كانت فى حاجة الى نقود .. نقود خاصة لا تتسرب الى يدى رافنل ، حتى تستطيع أن تضمن استقرار الصغيرة فى دراستها .. لقد حاولت عندما كان الحظ يواتيه ان تحمله على ان يعطيها شيئا من المال . ولكنه كان يهتف قائلا :

الا تحصلين على كل ما تشتهين يانولا ؟. اذن ففيم تطلبين النقود ؟

أما اذا كان تعسا منكودا ، فكان يبسط لها راحتيه ويقول

ــ لست املك من المال شيئا يانولا .. ولقد قدمت اليك في أويقات الرخاء كل ماكان في مكنتي ان أقدمه ..

ــ هذا حق يا جاى .. ولكن : أية حياة هذه !.. نحن يوما سعداء . ويوما اخر لا نملك شيئا .. أليس في وسعنا أن نعيش كما يعيش غيرنا من الناس .. حياة مستقرة امنة

ــ كان يجدر بك أن تتزوجى حدادا .

ووجدت نفسها تفكر في السبل التي تتيح لها الاكتساب وتهيىء لها ما تحتاج من نقود .. وفكرت فيما اوتيت من مواهب .. وما أحرزت من نجاح في التمثيل على ظهر «زهرة ألقطن» ومن معرفة بسيطة بالعزف على البيانو . وبالاغاني الزنجية التي تعلمتها من جو وكويني .

وأفضت بذلك الى جايلورد يوما وحمرة الخجل تصبغ وجنتيها . ولكنه صمت وطال صمته فاحست بحرج وقلق عادت تقول :

ــ ما فكرت في ذلك طمعا في الملبس او سعيا وراء الظهور ولكن هناك كيم .. انها لاتتلقى شيئا من العلم ، ولم نهيء لها التربية الصالحة .. وما هذا من العدل في شيء !.

ــ يا الهي ! هو ذا حديث يعكر على الانسان صفوه وهناءه

ــ ولكن ياجاى .. ان واجبك ــ كما هو واجبي ــ ان نفكر في هذا الصدد ياعزيزى .. وهذا ما دفعني الى التفكير في كسب شيء من المال .

فاجابها رافنل :

ــ ما اراك معتقدة ان تلك الادوار التي كنت تقومين بها هي من التمثيل في شيء .. وما اظنك تعتقدين أن ذلك كان مسرحا

ــ انى اعتقد ذلك فعلا : واظن .. وانى لاحب تلك الأدوار لقد كان كل فرد فى الفرقة يمثل لانه يحب التمثيل ويحب تلك الادوار . وربما لم يكن التمثيل على درجة كبيرة من الفن ولكن الجمهور كان يعتقد أنها كذلك ، وكان يبكى فى مواقف البكاء ويضحك فى مواقف الضحك

ــ ان شيكاغو ليست قرية من قرى الساحل .. وجمهورها ليس بالجمهور الساذج الغر .. لقد رايت مادجيسكا ومانسفيلد وبرنهارت جيفرسن على المسرح هنا : ولابد انك لمست الفارق ..

ــ بل على العكس .. لست أنكر أنهم جميعا على درجة كبيرة من النبوغ ، وتسندهم ادارة واخراج فنيان عظيمان ولكنهم يفعلون ماكنا نفعل ، وانما فى صورة أحسن واداء أدق

ــ لا تفخرى ياعزيزتى .

وقصدا أخيرا الى مقهى ريفى بديع يقوم خارج أطراف المدينة . فى عزلة . وهدوء . ولكنهما ما كادا يستويان فى مجلسيهما حول احدى الموائد ، حتى برزت من منعطف فى نهاية الطريق المفضية الى المقهى . عربتان تحملان جماعة من شباب شيكاغو العابث اللاهى ، تصاعدت ضحكاتهم واغنياتهم تملأ الجو وتعكر الهدوء .

وهتف رافنل فى عجب وقد عبس حين تبينهم وهم يقتربون : يا لله .

ــ أو تعرفهم يا جاى ؟

ــ انهم جماعة (بيس شايين) ؛ ولابد أنه دعاهم الى حفلة يقيمها احتفاء بعرسه الذى سيقيمه بعد غد .

ــ احقا !. ما أبدع مثل هذه الحفلات !. وأيهم العروس ؟

ولكن رافنل لم يجب . ونفذت الجماعة الى المكان فى ضجيج وصخب ، فاكتسحوا الموائد وكانهم سيل فاض فاغرق المقهى . ولمحوا رافنل فجاة . فصاح احدهم :

ـ جاى !. ليلعنني الله ان لم يكن هذا جاى !. ايهـــا الخبيث الماكر . اذن فهذا سر اختفائك . هاهو ذا جاى يا بلانش .

فقال جاى هامسا لاحدهم ، وهو متجهم الوجه :

ـ حسبتكم ستقصدون الى حانة كراسب .

فصاح شاب اخر : يا للخبيث !.. لقد ظن جاى الماكر أننا ذاهبون الى كرامب فاصطحب فتاته الى هنا .

فصاحت بلانش ضاحكة .. وحذا الجميع حذوها .. ولكن رافنل هتف بالشاب بذات الصوت الخافت :

ـ صه أيها المنكود

ـ اوه ! أن جاى يخشى ان تغضب عليه فتاته .

وكانما شاءت فتاة جاى أن تثبت له أنه كان مخطئا حين غمطها مهارتها فى التمثيل . فقد رفعت راسـها وتاملت الجماعة برهة بوجه شاحب وعينين واسعتين .. ولكنهـا كانت تتبتسم ، حين قالت بصوتها العذب :

ـ هلا قدمتنى الى اصدقائك يا جاى ؟

فهمس : لا تكونى حمقاء

وحينئذ وقف العريس ـ بيس شايين ـ وهـو يترنح ثملا ، وقال :

ـ سعيد بالتعرف اليك يامسز .. ا .. رافنل .. لـ لقد عرفتك اذ ذكرت ا . ا .. أن بعضهم أشار لى مرة نحوك فى .. فى .. فى المسرح . ان اسمى بيس شايين . وهؤلاء فيفى .. جيرتى .. فيوليت .. بلانش .. مينون . كلهن فتيات لطيفات .. وجورجى سكيف .. توم هاجيرتى .. بيل الصغير .. جيرى دارلنج .. أيها الاولاد ، وأيتهـــا الفتيات . أقدم اليكم مسز جايلورد رافنل ، زوجة المقامر العريق .. معذرة فانني ساتزوج بعد غد .. وطبعا لاباس من .. بعض المرح

وهتف أحد الشبان :

ـ صه !.. صه .. كلمة من مسز رافنل

فارتفعت صيحاتهم وهتافاتهم .. ونهض رافنل يريد ان يفر بمانوليا من الموقف ، ولكنهم صاحوا :

ـ اجلس يا رافنل . ألقوا به الى عرض الطريق ! أو فليصمت !

وتحول رافنل الى مانوليا ، والقى براحته على ذراعها فاذا به يرتجف . وحولت راسها نحوه فى بطء ومازالت الابتسامة تضيء وجهها ، ثم قالت :

ـ لا .. لا .. لست مستاءة يا عزيزى . انني احب مثل هذه الجلسات الضاحكة !

ومدت يدها الى عنقها فى حركة غير ارادية . وقالت :

ـ انني لا استطيع ان اخطب فيكم ..

فتعالت صيحات الاحتجاج .. ونظرت مانوليا الى زوجها فاحسست بشيء من الرثاء والاسى لحاله ..

وعادت تواصل حديثها : ولكنني استطيع أن أغنيكم اذا أعرتموني آلة (البانجو) .

وارتفعت الايدى بست من هذا النوع من الالاتالموسيقية فتناولت اقربها اليها .. وهتف رافنل هامسا :

ـ مانوليا !..

ـ اجل .. يا عزيزى جاى وكف عن هذا التأفف . انه ليسعدني ان أدخل السرور على قلوب أصدقائك ، ولسوف أغنيهم أغنية تعلمتها عن الزنوج فى صغرى عندما كنت أعيش على ظهر سفينة مسرحية فى المسيسبى

وأحنت رأسها على البانجو : وراحت تمس أوتارها بطرف أصابعها فى رفق ، ثم طرحت راسها الى الخلف : واسدلت أهدابها على عينيها . وترنحتقليلا كماكان يفعل جو حين يهزه الطرب ..

ثم انطلقت تغنى فى صوت عذب ناعم . فلما انتهت ارتفعت صيحات الاعجاب من الرجال . بينما أطرتها الفتيات فى فتور . وعاد الجميع يطالبونها باغنية أخرى . واخذتهم النشوة فمضوا يدقون الارض باقدامهم مع الانغام . حتى اذا فرغت ، تعالى انهتاف أكثر من ذى قبل . وأبت بلانش من دون القوم الا أن تقف صائحة :

ـ لست أدرى لم لا أميل الى هذه الاغنيات . انهـا حزينة حتى لكاننا فى كنيسة ، ألا تعرفين بعض الاغنيـات انزنجية الاخرى . المرحة ؟..

فاجابت مانوليا : لا أعرف سوى هذا النوع فى الواقع .. والان .. اظن ان الوقت قد حان لانصرافنا

ثم ثبتت عينيها الكبيرتين على العريس وقالت : أتمنى لك كل السعادة والهناء .

وانحنى رافنل يحييهم .. وللمرة الثانية فى ذلك اليوم أخرج منديله وراح يجفف العرق عن جبينه .

وتجمع العابثون فى شرفة المقهى يودعون رافنل ومانوليا . كان ذلك فى الغسق . وقد سرت فى نسيم المساء بعض الرطوبة كما يحدث عادة قبيل انخريف فى منطقـة بحـيرة ميشيجن . وارتعدت مانوليا وجمعت اطراف معطفها حولها والتفتت الى الجماعة ملوحة بيدها للمرة الاخيرة

وسادت السكينة بينهما بعض الوقت ، ثم قال رافنل بصوت خافت . وفى شيء من الدعة :

ـ حسنا .. اظن أن هـذا قد رفه عنك يانولا ! .

ـ يجب أن أواجه الحياة .. لقد كنت أحيا كفتاة صغيرة حمقاء ، وانا امراة متزوجة .. ولعل ذلك يرجع الى ماتعودته من خضوع لامى .. يجب أن أتولى العناية بامر كيم فلا تبتئس لهذا يا عزيزى ..

الفصل السادس عشر

احست مانوليا بانقباض عندما طافت مع الراهبة وكيم برفقتهما . حجرات مدرسة الراهبات المعتمة حتى نقـد ودت لو أن الصغيرة تعلقت بها وبكت وابت البقاء . . والواقع أن تعليم كيم فى مدرسة الراهبات أمر لم يكن يخطر لمانوليا ببال ، كما ان المسرح لم يكن ذا نصيب فى دراستها المنتظرة

وانتهت الجولة . واوت مانوليا الى حجرة ناظرة المدرسة وما كاد بصرها يقع على الاخت الناظرة حتى ازداد انقباضها واكتئابها .. وهمت أن تعتذر للناظرة بانه لابد من فترة تخلو فيها الى الطفلة لتتعرف ما اذا كانت قد أحبت المكان أم لا ، وأسرت فى نفسها أن تحمل كيم على الرفض . ولكن كيم هتفت بها :

— لكننى أحب المدرسة يا أماه !!

وجزعت مانوليا ، حتى أنها صاحت دون وعى : اوه . لا لا . يا كيم ! . .

ثم فطنت فتداركت قائلة : أواثقة انت ياعزيزتى ؟.

— نعم . .

واحست مانوليا بياس واسى . .

وعبست الناظرة .. وزحف الالم الى عينيها . وقالت :

— اذا كنت لاتريدينها على أن تكون بيننا . فمن الاجدى ان لانقبلها نحن بيننا .

— لا . . بل أريد . . بل اريد !. .

وتم الاتفاق . على أن تصحب مانوليا ابنتها الى المدرسة يوم الاثنين التالى . بعد أن تعد لها الثياب اللازمة

وهكذا ابتعدت كيم عن الحياة المضطربة غير المستقرة .

وعن طريق ابيها المقامر . فى الوقت الذى كان رافنل يتلقى فيه اكبر صدمة عرفها فى حياته العابثة .. فقـد راحت

نيويورك صير شيكاغو بما حوته من أندية المقامرة . وبما تزخر به من مقامرين ومجرمين .. وقامت شيكاغو تنفض من كاهلها هذا العار . فاذا باندية المقامرة العامة تغلق . واذا بالمنتديات الخاصة توضع تحت الرقابة القاسية .واذا بالمقامرين يحاطون بالانظار المترصدة المتربصة ، تعد عليهم حركاتهم وتحصي سكناتهم ..

وبدات العصا والخاتم ومعطف مانوليا المصنوع من الفراء تعرف لاول مرة الاخفاق فى العودة الى رافنل بالغرض الذى يرجوه .. وطال امد اقامة مانوليا ورافنل فى النزل الرخيص بشارع أونتاريو .. بل وانحدروا الى ماهو أرخص منه . فى شارع اوهيو

لم ترتح مانوليا لشيء الا لانها اطمانت الى ان كيم قد استقرت فى المدرسة .

وقالت مانوليا لرافنل : كنت موقنة أن هـذا سيحدث يوما . الم احذرك وانذرك ؟ ولكننى سعيدة لان كيم بعيدة عما نحن فيه .

فقبلها قائلا : يالك من ساذجة ايتها الحبيبة !..

كان غرامهما غريبا .. ولقد تحقق ما تنبات به بارتى

واشتدت بهم الضائقة حين تاخرا فى سداد دفعتين من نفقات دراسة كيم . وايجار البيت . وفيما هما يتحملان فى صبر وجلد ورجاء : اذا بخطاب من بارتينا ان هوكس .تعلن فيه اعتزامها زيارة ابنتها وزوج ابنتها وحفيدتها

وكانت رسائل بارتى تفد عادة على النزل الانيق القائم فى شارع شيرمان وتحول اليهما اينما كانا .. وكانت مانوليا قد حملت كيم الى طيبة بضع مرات فى زيارات كانت تعد وتنفذ فى أويقات الرخاء واسـعة .. ومن ثم لم تكن بارتى لتعلم شيئا عن تقلبات الحظ التى تتوالى على الاسرة الصغيرة وكم كان غريبا أن تسفر تلك الزيارات التى كانت تنتهز اثناء

موسم راحة السفينة او فترات عطلتها . عن تنافر بين الحفيدة والجدة .. فلقد كانت لكل منهما ارادة حديدية وعناد جامد . وحيوية لاحد لها . ومقاومة طاغية .. بل كانتا فى نظر مانوليا متشابهتين أكبر الشبه .. وعلى العكس كانت كيم اذا وجدت أمها تقف امام صورة الكابتن اندى . كما كانت تفعل أحيانا ولساعات باكملها تحدق فى عينيه . تفصح عن حبها العظيم لجدها المتوفى ..

وكانت مانوليا تصحبها احيانا الى النهر : فتقول كيم :

ـ أهذا هو النهر الذى طالما حدثتنى عنه . انه قذر كثيبم على العكس مما صورته لى . وكانت بارتى تتساءل :

ـ شيرمان هاوس !. كيف تعيشون فى نزل طيلة هـذه الاعوام وتتحملون ما يتقاضاه من نفقات غالية للطعام والشراب انك وزوجك تبددان النقود فى اسراف . والا . فلم لاتعيشان فى مسكن خاص ككل الناس ؟. بودى لو اعرف من أين تاتين وزوجك بهذه النقود التى تبعثرانها ؟..

ـ ان جاى يحب حياة النزل .. وهو موفق كل التوفيق فى أعماله .

بيد أن بارتى لم تكن تقنع بمظاهر ابنتها .. وكانت تنتهز فرصة غيابها تستدرج الصغيرة الى احاديث تفهم من خلالها الحقيقة .. فعرفت نزل شارع أونتاريو .. ونزل شـارع أوهيو . وفترات الضيق والاعسار التى كانت تنتاب الاسرة من وقت لاخر .

ولكن . هاهى ذى بارتى معتزمة المجىء الى شيكاغو بعد أسبوعين : وهى التى لم تر المدينة قط فى حياتها من قبل ولسوف تنزل فى النزل الذى تقيم فيه ابنتها وحفيدتهـا وزوج ابنتها . وانها لترجوهما فى خطابها أن لايخشيا ان يدفعا شيئا من أجر اقامتها . فانها لن ترضى بهذا .

وهتف جايلورد رافنل فى ضيق وكرب وغيظ :

ـ يا الهى !.. يا الهى !..

وأرسل حوف شماتتها الى نفسيهما جزعا وشعورا بالهوان

وقالت مانوليا : اقترض .   ـ واين الضمان ؟.

ـ ماعنيت هذا النوع من القروض .. وانما اقترض من اصدقائك . من الرجال الذين عرفتهم طيلة هذه السنين

فابتسم فى اسى وقال : انهم ليسوا باحسن منى حالا . فلقد حاولوا الاقتراض منى ..

ـ واصحاب المنتديات التى خسرت فيها الالاف ؟

وفجأة قفز على قدميه . واختطف قبعته وعصاه وتحول يهم بالانطلاق من الحجرة .. وكانت الساعة التاسعة مساء ولم تكن من عادتها أن تسأله اين يذهب .. ولكن قسمات وجهها كانت تصرخ بالسؤال ..

ـ رفهى عنك يا فتاتى . فلقد تذكرت شخصا

ـ من ؟ .. من يا جاى .

ـ امرأة خدمتها مرة . فهى مدينة لى .

ـ امرأة ؟ امرأة يا جاى ؟

ـ لا تشغلى بالك . واتركى الامر لى .

ولم يعد رافنل الا مع الخيــوط الاولى من الفجــر . فاستيقظت على وقع قدميه .

ولاول نظرة القتها على وجهه . تراءى لها انه على غير عهدها به .. كان جايلورد رافنل ثملا لاول مرة مذ عرفته.

وترنح رافنل قليلا . ثم اسلم عصاه الى ركن الحجرة فى عناية وخلع ملابسه ووقف برهة يتارجح ويتمايل . ثم دفع اليها بحزمة من الاوراق المالية قائلا :

ـ احصى هذه ؟ .. عشر ورقات من ذات المائة دولار وعشر مثلها اى الفا دولار يا مسز رافنل

ثم عاد يتم خلع ثيابه فى شىء من العنــاء .. وتثــاءب كشخص يعود الى بيته مرهقا بعد عمله اليومى .

وتطأمت اليه ثم قالت : لقد أتيت بها من هيتي شيلزن
ووقف جامداً . لا غاضبا . وانما . كشخص اهين
ـ ماذا تقولين يا مانوليا ؟ .. انما اخذت من هيتي الطيبة الفا فقط . ثم لعبت في منتدى « شيدى » فكسبت الفا اخرى من الروليت . ها . لقد كانت صدمة للجميع .. الفا فقط من هيتي . ولعبت الروليت . وكسبت . الفا اخرى .
ـــ ثم القى بنفسه فى الفراش .. وسرعان ما كان يغط فى نوم عميق .
ونفذت طلائع الفجر فاحتلت الحجرة . ونهضت من مكانها لتطفىء المصباح . ولكنها قبل ان تفعل التقطت حزمة الاوراق المالية وعدت عشرة منها .. الف دولار . ووضعت الالف على المنضدة . ثم دفعت بالالف الاخرى تحت الوسادة وأطفات المصباح . ثم مضت ترتدى ملابسها .
وهبطت اسلم المعتم . فالتقت بصاحبة البيت التى ما كادت تراها حتى هتفت فى تلطف : لماذا تبكرين بالخروج يا مسز رافنل ؟ ـ انها الاعمال

الفصل السابع عشر

دوى رنين الجرس بين جدران القصر الفخم الذى يحرس بابه تمثالا الاسدين . ثم سادت فترة صمت شاملة وقفت مانوليا خلالها فى الخارج تستجمع اطراف شجاعتها التى بدات تفارقها من جديد .. وهى ترى الناس يمرون بها . ويرمقونها وهى تدق باب هيتي شيلزن ..
وانفرج الباب أخيرا عن زنجى فى لباس ابيض ناصع . لم تدر مانوليا سر الحزن الذى يشيع فى نظراته .
قالت : ان اسمى مسز رافنل . واود مقابلة هيتي شيلزن قال وكانما يردد درسا حفظ : ان مسز شيلزن مشغولة

يا سيدتى .
ثم هم أن يغلق الباب دونها . ولكنها هتفت به :
ـ صبرا . لا تغلق الباب .. اريد ان ارى هيتى شيازن
وتبين الرجل فى لهجتها رنة الامر . فسالها : وماذا تريدين؟
ـ قل لها ان مسز جايورد رافنل تريد أن تقابلها لتسلمها الف دولار ..
وفتحت حقيبتها فى شيء من السذاجة .. ووقع بصره على الاوراق المالية فاحس باهمية الزيارة ..
ـ حسنا يا سيدتى تفضلى بالدخول وساخبرها
ودخلت مانويا .. وتولاها خوف غريب واحست بركبتيها ترتعدان . ولكنها تشبثت بحقيبة يدها . وراحت تتلفت حولها فى فضول . وقد اخذت بالرياش الفخمة الانيقة التى تزين الردهة ..
وهبطت هيتى شيازن السلم فى خطوات متباطئة . تحوطها هالة من العظمة والجلال .
قالت وهى تفحص زائرتها بعين الخبيرة الدقيقة : كيف أنت هل انت مسز رافنل ؟
ـ اجل .. ـ واية خدمة تؤدين ؟ ..
فاخرجت الاوراق المالية وقدمتها للسيدة ..
فقالت فى تلعثم : النقود .. التى اعطيتها .. لزوجى .. ها هى ذى .
ـ ولكنى لم اعطه اياها . وانما قدمتها له قرضا . وقد وعدنى ان يردها الى .. ولرافنل شهرة حسنة فى سداد الديون .
ـ ولكننا لسنا فى حاجة اليها .
ـ لستم فى حاجة اليها .. اذن لماذا جاء يطلبها ! .. انني لست مصرفا لسحب النقود وايداعها .
ـ انني ابسفة . لكنه لم يكن يدرى .. لا استطيع ..

لا تريد ؟ لا استطيع ان اخذها ووضعت هيتى نيارتها فوق انفها وقالت :
ـ اه . انت من هذا النوع الـ .. ؟ ولكن هل يعلم زوجك بهذا ؟
ولم تجب مانوليا .. واخذت هيتى تحصى الاوراق . ثم دقت جرسا . ولما اقبل الخادم قالت له : ادع جولى واطلب اليها ان تحضر قلما وورقة .
وانصرف الخادم وخطواته لا تكاد تسمع على الابسطة التى تغطى السلم .
ـ انت طبعا تريدين ايصالا .. على الاقل ليراه اذا ما ثار وغضب
واقبلت فتاة ممشوقة القامة فارعة العود . فى ثوب اسود بسيط . لم تستطع مانوليا ان تتبين ملامحها فى الردهة المعتمة .. ولكن عينيها السوداوين بعثتا فى ذهن مانوليا ذكرى قديمة باهتة لشبح من اشباح الماضى .
وقالت هيتى تحدث الفتاة :
ـ اكتبى ايصالا بالف دولار تسلمتها من مسز جايلورد رافنل .
ووقعت هيتى على الايصال .. وانثنت الى غرفتها
وفصلت الفتاة الايصال من الدفتر . وقدمته لمانوليا .. وما كادت هذه تتناوله حتى التقت عيناها بعينى الفتاة وحينئذ وقفت الاثنتان تتبادلان نظرات تزخر بالعجب والدهشة والذهول وندت صيحة من الفتاة ثم انفلتت تقفز درجات السلم وصاحت مانوليا وهى تهم باللحاق بها :
ـ جولى . جولى .. صبرا .
ولكن الخادم الزنجى وقف فى طريقها قائلا فى احترام : الباب من هنا يا سيدتى .
ونفذت مانوليا الى الشارع . وهى لا تعى .. وشعرت

فجأة بالدموع تنحدر من ماقيها .

كانت « جولى » فتاة هيتى شيلزن المقربة . هى نفس جولى الممثلة التى صادفتها مالونيا لاول مرة لدى باب منزل طيبة .. ثم التقت بها على سطح « زهرة القطن »

وهامت مانوليا على وجهها بعض الوقت .. ثم تذكرت انها جائعة . فعرجت على مطعم رخيص تناولت فيه غداء تافها .. ثم وقفت امام مرآة فى مدخل المطعم حيث نظمت شعرها . واحكمت وضع قبعتها على رأسها . وهى تسائل نفسها .. ترى ما العمل ؟

كانت تعلم أن فى شيكاغو بضعة مكاتب لتقديم الممثلات الى المسارح .. ولكنها كلها ذات سمعة سيئة . وفجاة تذكرت مسرح كول وميدلتون الذى زارته مع زوجها فى رحلتهما الاولى الى شيكاغو . حين كانا يعملان على سطح السفينة.

وكان هذا المسرح يعرض برامج منوعة . تجمع بين التمثيل والرقص والغناء .. وتذكرت ما قاله لها رافنل اذ ذاك :

ـ سوف يوفق كول وميدلتون الى تشييد مسارح فخمة لكل نوع من هذه الانواع .

ولقد صدق ظنه . اذ افتتح الشريكان بعد عامين مسرحا خاصا لمسرحيات « الفود فيل » فصاح رافنل :

ـ اما قلت لك ! .. أن بعض ممثليهم يحصلون على اربعمائة دولار فى الاسبوع .. بل اكثر ! ..

ثم عقبا بصالتين للرقص والغناء .. يعمل فيهما كثير من الفنانين والفنانات ذوو المواهب .

ويممت مانوليا شطر شارع واباش . حيث قامت أبنية مسارح وصالات كول وميدلتون . وهناك فى احدى هذه الابنية كان المكتب الخاص لاختيار الفنانين الجدد . فتوقفت مانوليا بالباب لحظة .. وتلفتت حولها فلم تجد احدا .

وترددت . ثم جمعت اطراف شجاعتها واجتازت الردهة بخطوات مضطربة . ثم احست فجاة بطمانينة غامرة .. كما لو كانت قد عادت الى بيت نشات فيه ثم هجرته مرغمة .. والقت نفسها فى صالة قد جلس بها رجل يغنى بينما احاط به نفر من الرجال .

وكان صوته خشنا . والاغنية من الاغنيات الزنجية المالوفة

وانتظرت مانوليا فى سكون حتى فرغ من الغناء . وساد الصمت .

ووقف المغنى واجما متلهفا .. فقال احد الرجال :

ــ حسنا .. اهذا فنك . من الخير لك ان تعود الى حيث كنت تعمل . فانك لا تفيدنا ! ثم نظر الى من حوله وقال : بحسبنا هذا اليوم ..

ونهض واقفا وهو يتثاءب .. وحينئذ تقدمت اليه مانوليا فى خفة .. فصعدها بعينيه .. وقالت له : اتسمح لى بان اسمعك بعض الاغنيات ؟

ــ من انت ؟ ــ مانوليا رافنل .

ــ لم اسمع باسمك من قبل ؟ .. وماذا تجيدين .

ــ اغنيات الزنوج على نغمات البانجو

ــ حسنا . اعدى التك واسمعينا .

ــ ولكننى لم احضر الالة معى .. الا اجد هنا واحدة ؟

ونظر اليها الرجل فى دهشة .. ولكن المغنى قدم اليها التة قائلا فى لطف :

ــ اليك يا اختاه واحدة ..

وتناولت البانجو وعيناها تفيضان شكرا وعرفانا بالجميل ثم تقدمت من المنصة فى هدوء وكانها تتحرك فى بيتها . ثم جلست وابتسمت . ولكن لم يبد على الرجل انه افتتن بابتسامتها .. وانطلقت تغنى . وما ان فرغت من الاغنية حتى قال

ــ غننا قطعة اخرى .

وانطلق صوتها رقيقا . حزينا مشجيا ..

وسالها احدالرجال الاخرين.اىنوع من الاغنيات هذه ؟
ـ انها اغنية زنجية ذائعه فى الجنوب ..
ـ ما اشبهها بالحان الكنائس .. هل انت زنجية
ـ كلا ..
ـ انك تجيدين الحانهم ونغماتهم .. ولكن اغنياتك لا تلائمنا .. اتعرفين شيئا من الاغنيات المرحة ؟ .. اغنيات الحب واللهو والعبث .
ـ كلا .. وكن اذا أرشدنى أحد الى اغنية استطعت او أؤديها .
ـ حسنا .. أن فى صوتك شيئا يغرينى بتشجيعك .. ساعطيك بعض قطع تتدربين عليها ثم تعودين يوم الاثنين لاختبرك مرة اخرى ..
ودفع اليها ببعض القطع التى انتقاها من مجموعة كانت ملقاة فوق غطاء المعزف .
ولم تر كيف وصلت الى البيت . ولكنها عندما نفذت الى الحجرة خيل اليها انها تدخل عشا مهجورا .
كان الظلام يجثم على المكان . فاضاءت المصباح .. واتجهت عيناها عفوا الى المنضدة القائمة فى صدر الحجرة فاذا بخطاب عليها .. وتاملته .. كان يحمل اسمها وقد كتب بخط رافنل وفضته فى لهفة فاذا هو ينبئها أنه قد رحل لبضعة اسابيع . وأنه سيعود بعد أن تكون امها قد غادرت شيكاغو . وربما ارسل اليها نتوافيه حيث يكون .. وطوى الرسالة على ستمائة دولار . و حبه وقبلاته
ولم تره مانوليا بعد ذلك قط

* * *

نفذت خادمة زنجية الى حجرة كيم وهى تقول : مازال ثمة نصف دقيقة يا مس رافنل . وكن هنا برقية باسمك
وفضتها فى عجل .. وبدا على وجهها كانها تلقت صدمة .. وتمتم الصحفى الذى جاء لاخذ حديث منها

ـ امل ألا تكون هناك أنباء سيئة ..

فدفعت اليه بالبرقية . فاذافيها .. « مسز بارثينيا ان هوكس ماتت فجاة فى الساعة الثامنة قبل رفع ستارمسرح « زهرة اقطن » فى كولدسبرينج بتنيسى . تعازى الفرقة .. برناتو »

وهتف الرجل : هوكس ؟

ـ انها جدتى .. ولم أرها . ولكنها تجاوزت الثمانين وكانت ذات شهرة واسعة فى احواض الانهار . فقد كانت تمالك وتدبر سفينة مسرح زهرة اقطن .. ولقد كان ثمة فتور بينها وبين امى وابى .

وقطع عليها الحديث صوت الخادم تعلن رفع الستار .. فقال الصحفى فى حزن :

ـ اننى جد اسف .. هل من خدمة استطيع اداءها ؟ هل استدعى والدتك ؟

ـ كلا .. انها مع كين .. وستعود بعد نصف ساعة .. لا فائدة ..

وهبطت الستار .. وانحنت تحيى الجمهور .. مرة وثانية وثالثة

وعادت الى حجرتها فراحت تزيل المساحيق عن وجهها. وتستبدل ثيابها .. واذا اوشكت أن تنتهى اقبل كين وامها .. وهما يضحكان .. ونظرت اليهما كيم وحز فى نفسها ان امها كانت فى تلك الليلة أسعد مما كانت فى اية ليلة اخرى

سالت كيم وهى تفكر فى مخرج من مازقها : كيف كانت المسرحية ؟ ..

فاجابها زوجها : الاخراج بديع .. والاضاءة غاية فى الروعة ..

فقاطعته مانوليا : ليكن .. هل تسمح باستدعاء سيارة تقلنى الى البيت ؟ .. إننى متعبة .. ولا أظن اننى استطيع قضاء السهرة معكما .

فقالت كيم : اننا لن نسهر الليلة .. مهلا يا كين
واقتربت من مانوليا وقالت : أماه .. لقد تلقيت برقية
فشهقت مانوليا . وصرخت كما لوكانت طفلة صغيرة :
امى ؟ .
ـ اجل ـ واين هى .. هل ماتت ؟
واسرعت تتأو البرقية .. ثم رفعت وجهها . فاذاالبهجة قد انحسرت عن ملامحها . وبدت كما لو كانت الشيخوخة قد أدركتها فجاة .. قالت :
ـ متى يرحل اول قطار الى ممفيس ؟ ..
ـ ما اظنك ذاهبة الليلة يا أماه
ـ بل ساذهب .. هناك قطار الى سانت لويس .. وفى الصباح . ارحل الى تينيسى ..
وسافرت فى ذلك المساء رغم احتجاج ابنتها وزوج ابنتها
كانت رحلة شاقة متعبة . ولكن مانوليا لم تشعر بها .
وكانت تعتزم اذا ما انتهى بها القطار الى ممفيس . ان تبحث عن اية وسيلة من وسائل النقل تحملها الى كولدسبرينج .. ولكنها ما كادت تغادر القطار . حتى تقدم منها رجل ادركت انه ذلك الـ « برناتو » الذى بعث اليها البرقية ..
وكان هو المدير العام . والقائم بامر الدعاية للفرقة
قال برناتو :
ـ لا شك انك متعبة يا سيدتى . فهلا تفضلت بركوب السيارة .
واشار الى سيارة انيقة فخمة تنتظر خارج المحطة فتحولت مانوليا نحوه شاكرة وسالت :
ـ جميل منك ان تاتى بسيارتك . فقد كنت فى حيرة
ـ انها ليست سيارتى يا سيدتى .. بل سيارة امك ..
وقد اصبحت لك طبعا .. والان . اعتقد انك تفضلين ان تاوى الى حجرتك التى حجزتها لك فى الفندق . لتقضى ليلتك
فصاحت مانوليا :

ـ الفندق ! كلا . انني أود قضاء الليلة على ظهر السفينة
ـ ان المسافة تستغرق ساعة .
ـ لا باس .

وجلس بارناتو امام عجلة القيادة . وانطلقت السيارة تسابق الريح

ولاحت لها السفينة .. وكان النهر موفور المياه اثر امطار ابريل وذوبان الجليد .. المسيسبى العظيم . العاتى الجبار .

الفصل التاسع عشر

كانت الرسالة العاشرة بعثتها كيم رافنل لامها حاسمة فى لهجتها وقد تسلمتها مانوليا فى الايام الاخيرة من شهر مايو . وقد رست السفينة على شاطىء « لواو » فى عرض المسيسبى ..

وجلست مانوليا على سطح « زهرة القطن » .. وقد تلاشت التغضنات التى كانت قد ارتسمت على وجهها . اذ مسح عليها هواء الجنوب بيده السحرية .. فاذا بها تسترد فتنتها الطبيعية .

ومضت تستعرض ذكريات السنوات الخمس والعشرين الاخيرة ..

لقد شقت طريقها الى المسرح ارتجالا وحالفها الحظ . اما كيم .. كيم العزيزة الغالية . فكانت على العكس منها لقد غادرت مدرسة الراهبات . ومضت تفكر فى مستقبلها فى روية . ثم قررت ان تنحو نحو المسرح .. ومضت فالتحقت بمعهد التمثيل بنيويورك حيث تلقت اصول الفن واقبلت على الدراسة فى شغف وجد ونشاط .. واى دراسة .. انها خليط غريب كان يكفى .. فى راى مانوليا لان يعد « بهلوانا لا « ممثلة » .. دروس فى الرياضة ..

والرقص التوقيعي والغناء .. والصوت .. والالقاء .. واللغة الفرنسية .. لكم أدهشتها هذه الدروس العجيبة حين اصطحبتها كيم يوما لزيارة المدرسة .

ولكن كيم كانت موفقة .. ناجحة .. فراحت تخطو نحو المسرح . خطوات المعتدة بنفسها الواثقة من فنها .. وسرعان ما اكتسبت النجاح تلو النجاح .. وراح النقاد المسرحيون يكتبون عنها الفصول الطويلة . مطنبين فى مديحها . متنبئين لها بمستقبل ربما لم تبلغه ممثلة غيرها

وصاحت كيم بعد ان احتضنت امها فى وجد وقبلتها فى شوق :

ـ نولا يا حبيبتى .. ماذا تعنين بالبقاء فى هذا المكان التعس كل هذه الاسابيع ؟ يجب ان تعودى معنا فورا . ان ..

ـ اسمعى يا كين .. اننى احب الانهار .. واهلها .. والسفينة .. وهذه الحياة لست ادرى السر فى ذلك ولكن هذا الحب اختلط بدمى .. فاذا كنت وزوجك تعتزمان الرحيل الليلة . فاستمعى الى لحظة

لقد خلفت جدتك ثروة بلغت نصف مليون دولار .. اجل نصف مليون ربحته من هذه السفينة خلال الخمس والعشرين سنة الاخيرة .. وانى لاهبك وكين هذا المبلغ

وقاطعاها بالرفض .. ثم الاحتجاج .. ثم التمتمة .. ثم .. ثم .. القبول ... وصاحت كيم فى فرح :

ـ نصف مليون .. اماه .. كين .. سيكون بوسعى الان ان امثل الادوار التى أتوق اليها . وان يتولى كين اخراج مسرحياتى كما أريد .. سيكون فى مقدورى ان انشىء مسرحا امريكيا فى نيويورك . وان اعرض مسرحيات .. ابسن .. وهوفمان .. ومولنر .. وتشيكوف . وشكسبير ..

ونظرت مانوليا اليها فى شىء من الفضول . كمن سمع

نكتة . لم يشاركه احد فى استساغتها
واخيرا .. حانت ساعة الرحيل .. وعادت كيم تردد :
ــ اماه .. لا استطيع ان ارحل واتركك فى هذه السفينة التى لا تكاد تستقر فى مكان . ووسط هذا الذباب .. والبعوض .. والزنوج .. والنهر المروع المخيف الذى يدهشنى انك تحبينه اكثر مما تحبيننى ..
وتعانقت الام وابنتها .. وتبادلتا القبلات ..وتصافحت مانوليا وكين .. وقالت كيم اخيرا :
ــ اماه . قفى فى المقدمة . حتى اراك من اقصى منعطف فى الطريق ..
وتجمع اهل المركب ــ وكانت قد اضيئت استعدادا لحفلة المساء ــ يودعون الشابين وقالت كيم من اسفل سلم السفينة
ــ اماه .. يجب ان تعودى فى اكتوبر او نوفمبر على الاكثر .. عدينى .. ان موسم مسرح السفينة ينتهى فى ذلك الوقت ..
واجهشت كيم بالبكاء عندما تحركت بها السيارة . ولم تحول بصرها عن السفينة
ووقفت مانوليا على سطح السفينة . كشبح بين السماء والماء .. شبح طويل ممشوق القامة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة . وان انبعثت من عينيها نظرة حزينة ..
وقالت كيم وهى تجهش بالبكاء :
ــ الا تراها رائعة يا كين .. انى لاحس بان حولها شيئا خالدا لا يقهر .. كذلك السر الذى يلف النهر ..
وانثنت السيارة مع الطريق .. وتدلت اغصان اشجار الشاطىء تحجب السفينة عمن فى السيارة .. فاختفت المركب .. والنهر .. والشبح القائم بين الماء والسماء .

((تمت))

طبعت بمطابع الدار القومية للطباعة والنشر